عباس محمود العقاد

الإنسان في القرآن الكريم

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تقديم

كانت ماهية الانسان ومنزلته في هذا الكون العظيم موضوع بحث الفلاسفة والعلماء والمفكرين منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر . بحث ذلك سقراط في محاوراته ، وأفلاطون في جمهوريته . وأرسطو في بعض كتبه الباقية . ولم يقصر بعض فلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابي وابن طفيل عن بحث هذا الموضوع في مجمل آثارهم . كما أدلى كل من « كانت » ، وهيجل ، وداروين ، ولامارك بدلوه في هذا المجال .

وقد أجمل العقاد في كتابه « الانسان في القرآن الكريم » آراء هؤلاء الفلاسفة والعلماء والمفكرين في الانسان بصورة شاملة دلت على سعة اطلاعه ، ووفرت على القارىء ومحب الاطلاع كثيرا من الجهد والعناء اللذين لا بد أن يتذرع بهما ليستطيع بلوغ ما يتوخاه من اكتساب المعرفة ، وبلوغ أوفر الحظ منها .

وهذا الكتاب هو في الواقع كتابان لا كتاب واحد . تناول في الأول منهما الصورة التي يستشفها الباحث عن الانسان من الآيات البينات التي أشارت اليه في مختلف حالاته ومواقفه . وتناول في الثاني ما ذهب اليه العلماء والمفكرون في تحديده ووصفه ، وتوازعه ، ونشأته وتطوره ، وفي ما يمتاز به عن سائر الكائنات الحية .

وخلاصة ما وصف به الانسان في القرآن الكريم ، كما يرى العقاد ، أنه المخلوق المسؤول الوحيد بين سائر المخلوقات لما خص به من عقل وتمييز ، وأنه يجمع بين النقيضين لما جبل عليه من الاستعداد الذي يجعله قادرا على اعتلاء أسمى ذرى الرقي ، كما يسهل له طريق الانحدار الى أسفل دركات الانحطاط . ولهذا ذكر الانسان في القرآن تارة محمودا وتارة مذموما لأنه أهل للكمال والنقص ، وأهل للخير والشر ، وأهل للاثنين .

والانسان جسد وروح ، وليس جسما ماديا فحسب . وعقيدة الروح من العقائد الغيبية التي هي أساس عميق من أسس التدين

تقوم عليه كل ديانة ، ويجب على العقل الانساني أن يؤمن بعلمه القليل فيها وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ، كما يجب على المؤمن أن لا يبخس حق الجسد ليوفي حقوق الروح ، وأن لا يبخس حق الروح ليوفي حقوق الجسد ٠

والذات الانسانية تتألف من النفس والعقل والروح ، وهي بمجموعها انسان واحد لا تحتمل أية صورة من صور التعدد ٠ فأما النفس والعقل في بيان القرآن الكريم فالراجح أن النفس أقربهما الى الطبع أو القوة الحيوية التي تشمل الارادة كما تشمل الغريزة فتعمل وتريد مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة ٠

وقد ذكرت النفس في القرآن الكريم بجميع قواها التي يبحثها علماء النفس في العصر الحاضر ٠ ذكرت « النفس الأمارة بالسوء » التي تمثل قوة الدوافع الغريزية ٠ و « النفس الملهمة » التي تقابل القوة الواعية فيها ٠ و « النفس اللوامة » التي هي عبارة عن قوة الضمير ، ومن شأنها محاسبة الانسان على ما يقترف من حسنات أو سيئات ٠ و « النفس المطمئنة » التي يتوفر لها الاطمئنان من قوة الايمان والثقة بالغيب ٠ وعلى كل حال ، فالنفس الانسانية واحدة وان تعددت قواها التي تجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، الانسان المتميز بكونه المخلوق الوحيد المكلف المسؤول ٠

وفي بحث الأمانة المذكورة في قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » ٠ ذكر اجماع العلماء والفقهاء على أن المقصود بها التكليف ٠ وقبول الانسان بهذا التكليف ليس مقصودا به المعنى الحرفي وانما هو تصوير مجازي لصفة مغروسة في فطرته ٠ ومن الطبيعي أن المكلف اما أن يؤدي ما يدعى اليه ويؤمر به بكل أمانة واستقامة فيستحق الثناء والتقدير ، واما أن يغفل واجبه ويحيد عما أمر به أو نهي عنه فيكون عندئذ جديرا بكل لوم وتشريب ٠ ولهذا نجد أحيانا في القرآن الكريم ثناء على بني آدم وتفضيلا لهم على كثير من خلائق الله ، كما نجد أحيانا أخرى انحاء على ظلمهم وجهلهم ٠

والانسان المكلف عليه واجب وله حق • عليه واجب الطاعة ، وله حق الحرية أي الارادة المقيدة ببعض القيود وليست المطلقة من جميع القيود • ومعنى هذا أن الانسان مجبر في بعض نواحي حياته ، ومختار في بعضها الآخر • وقد وردت في القرآن الكريم آيات توحي بأن الانسان مريد مختار لأن فيها خطابا متكررا الى العقل ، وبيانا متكررا لحساب الانسان العاقل على الخير والشر مع اسناد الارادة اليه في استحقاقه للثواب والعقاب • كما وردت آيات صريحة تسند الارادة الى الله ، وتقرر أنه هو الخالق المقدر الذي يهب الهداية والضلال ، ويعطي كل شيء خلقه ويهديه ، وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وان لم تبلغ في الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والتفكير •

والانسانية في نظر القرآن أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها وشعوبها وقبائلها ، واختلاف لغاتها وألوانها • وفي هذا التعدد حكمة بالغة تجعله من أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتنوع المساعي والأساليب لاعمار الارض واستنباط أدوات الصناعة مما ينجم عنه تعدد الحضارات وأفانين الثقافة والكشف عن أسرار الطبيعة • وبهذا فان القرآن قد وضع الانسان في موضعه الصحيح حين جعله كأفراد أسرته الانسانية « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمي بمختلف شعوبه وقبائله الى هذه الأسرة البشرية التي لا فضل فيها لأحد على الآخر الا بالتقوى والعمل الصالح ، وان نشأته الآدمية كما وردت في القرآن الكريم هي طريق الحياة من الأرض الى السماء أو هي طريق الكائن الحي من المادة الصماء الى الخلاق الحكيم •

وفي القسم الثاني من هذا الكتاب يتحدث العقاد عن « الانسان في مذاهب العلم والفكر » • وقد أولى مذهب التطور عناية خاصة، وتحدث عنه وعن صاحبه « داروين » باحاطة واسهاب تجعل القارىء يعجب أشد العجب من هذا الاطلاع الواسع الذي أعانه على شرح هذا المذهب وموقف العلم والعلماء ورجال الدين منه ، وايراد حجج المؤيدين ومآخذ المعارضين على نحو يجعل المطالع قانعا بما بسطه له العقاد عن هذا المذهب ، مكتفيا بما أورده له من حقائقه وأسراره ، ومواضع الخطأ والصواب فيه ، وموقف الأديان منه ، وموقف صاحبه من الدين •

وينتقل من مذهب التطور الى مذهب آخر يوازيه ويتمشى معه في معظم الطريق ، ولكنه يختلف عنه في بدايته ولا ينتهي الى غايته • وهو مذهب « سلسلة الخلق العظمى » وفحواه أن الوجود درجات متفاوتة في الضعة والشرف ، تبتديء من المادة الأولى التي لا صورة لها وترتفع الى مرتبة الوجود الالهي الذي هو كله خير ولا يشوبه شر ، ولا يعرض له الجهل ولا يخفى عليه سر • والقائل الأول بهذا المذهب بين الأقدمين هو الحكيم الالهي أفلاطون ، فقد وضح هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية هي أن الالـه خير محض لا يضن على شيء بنعمة الوجود ، ومهما يبلغ من حقارة شأنه فهو أهل للوجود في مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يرتقي من هذه المرتبة الى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب في طبائع الأشياء من طموح الى الكمال •

ويتناول في فصول تالية مقام الانسان في علـم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية ، وما وصلت اليه علوم النفس والأخلاق في عصرنا الحاضر من تحليل للنفس الانسانية وكشف أسرارها ، ومن بحث في الأخلاق ومنشئها وتطورها • كل ذلك في نطاق من الدقة والشمول تروي غليـل المتعطش الى معرفـة مـا يحيط بالانسان من خفايا وأسرار •

ويختم الكتاب بتأكيد أن القرن العشرين لم يقدر الانسـان تقديرا أكرم ولا أعدل من تقدير أهل القرآن من حيث موضعه بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء • فهو المخلوق المميز الذي يهتدي بالعقل الى ما يجهل ، وبالايمان في كشف ما خفي عليـه • وهو أخ لكل فرد مـن بني آدم لأنهم عشيرته التي لا يمتاز فيها أحد على أحد في الحقوق والواجبات ، ولا يفضل الواحد على غيره الا بما آتاه من حسن واجتنبه مـن سوء ، ولا يدان بعمل غيره •

ولا يسعنا أخيرا الا أن نتوجه بالشكر الجزيل الى السيـد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لعنايته الفائقة في اعادة طبع هذا الكتاب الذي هو بحق من ذخائر المكتبة العربية الاسلاميـة ، فله مـن طلاب الثقافة الاسلامية وافر الامتنان ، ومن الله تعالى أجزل الثواب •

م • ل

إنسان القرآن

وإنسان القرن العشرين

تمهيد

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هـذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجىء الانسان الى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى اليها ، كما ألجأه الى ذلك كله هذا القرن العشرون ..

قديما كان الحكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الانسان : « اعرف نفسك ! »

وانها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان اذا أجابه فانما يجيبه باسم «باطنى» يعرفه بملامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختـار اعتسافا[1] من بضعة حروف .

وهو على أية حال سؤال الى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرين جوابا متفرقات ..

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيـوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المسـاء .. فكان سؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الانسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانسان كله . لا تبتعـد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ..

الا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد

---

(١) اعتسافا : اعتسف الامر ركبه من غير روية ولا تدبير .

يكون هلاكا للجسد والروح ..

ما مكان الانسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هـذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الانسان » ..

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان

ان القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الايديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » ، لأنه كلما ألقى على الانسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه .. فان يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول

وليس أكثر من « المبادىء والعقائد » التى نسمع عنهـا فى هـذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الايديولوجيات »

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعداها الى مشكلة الأبد . مشـكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيهـا ايمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصاراك(١) انك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك ان سكتوا عليها

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه

---

(١) قصاراك : قصارى بضم القاف الغاية والجهد ، يقال قصاراك أن تفعل كذا .

هذه العقيدة الدينية لاتوجد اليوم لتنبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبـون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد يقعـدون وهم يجهلون انهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون ! ..

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها ، وسبيلها جميعا أن تنتهى الى قبلة واحدة : تنظر اليها فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى أشـلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق

***

ان القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليهـا حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيهـا أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون (١) ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس

***

ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم ، وان القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « ايديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن ..

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المادية ، أو

---

(١) زبون : يقال حرب زبون أي يدفع بعضها بعضا من الكثرة .

الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الالهية ، ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم

وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شيء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور ..

واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وان أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار

واستمع الناس الى « العقلية » فقال لهم قائل منها ان « انسانيتهم » كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وان الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! .. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .. !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الالهية عن مكان هذا الانسان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته فى آدم وحواء

سمعوا انه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ..

وسمعوا انه انسانان .. انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول .. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء أو اختيار

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم اليه ..

الانسان فى عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع

و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصـــدق النية فيما أحسنه واتقاه ..

***

وفى الصفحات التالية كتابان فى كتاب وجيز .. فبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، وتتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس(١) والخيال ، ولا نزيد فى سردها على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الانسان .

---

(١) الحدس : الظن والتخمين .

الكتاب الأول

الإنسان
في القرآن

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب الى عقائد الرشد والهداية .. لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الانسان ، اما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله ..

ولقد ذكر الانسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك انه يحمد ويذم فى آن واحد، وانما معناه انه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله ــ فردا وجماعة ــ لايؤخذ واحد بوزر[1] واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

(كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِين)[2]

« سورة الطور »

***

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« سورة البقرة »

***

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل اليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع .

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل ..

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الايمان :

---

(١) بوزر : الوزر : الاثم والذنب . والحمل الثقيل . (٢) رهين : كل ما احتبس به شيء . وكل امرىء بما كسب رهين : أي يحبسن بعمله .

(وَلِكلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قضِيَ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) « سورة يونس »

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ) « سورة فاطر »

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) « سورة الاسراء »

***

أما العلم فان أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الاسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الانسان :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) « سورة العلق »

وأول فاتحة فى خلق الانسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ ، لاَ عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) « سورة البقرة »

***

وأما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه :

(لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) « سورة البقرة »

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى) « سورة النجم »

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (١) خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) « سورة الزلزلة »

---

(١) ذرة : واحدة الذر وهو النمل الصغير ، وجزء من أجزاء الهباء المنبث في الهواء .

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هى « الأمة الانسانية » والههم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

(يٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) « سورة المؤمنون »

***

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر اليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصــل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخــلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) « سورة الاسراء »

***

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) « سورة التين »

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ) « سورة لقمان »

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ) « سورة الحج »

***

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة ــ على السواء ــ لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم

والطغيـان والخسران والفجور والكنود[١]، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) « سورة ابراهيم »

***

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) « سورة العلق »

***

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) « سورة العصر »

***

(بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) « سورة القيامة »

***

(إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) « سورة العاديات »

***

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزاما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الانسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل والارادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتها بصـورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الأعضاء الذى أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق فى الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال

---

(١) الكنود . مصدر كند أى جحد النعمة وكفر بها .

وانما المعنى الموافق لسائر معانى الآيات ، ان الجمع بين النقيضين فى الانسان ينصرف الى وصف واحد ، هو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين

على ان الآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الانسان ، لم تخل مما يوحى الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوى اعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً (١) ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (٢) ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

« سورة المؤمنون »

***

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

« سورة السجدة »

***

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)

« سورة الروم »

***

(سُبْحَانَ الذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ)

« سورة يس »

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شىء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه

---

(١) علقة : القطعة من الدم المنعقد . (٢) مضغة : المضغة من اللحم قدر ما يلقي الانسان في فمه .

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ واقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق فى تفصيله سائر أركانه التى تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل فى هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الانسانية

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه الى هذه الفضيلة التى تحسب لأول وهلة كأنها شىء من الواقع البـديهى لا يحتاج الى التنبيه ، ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، فى فضيلة التبليغ المقصود ، ونعنى به التبليغ الذى يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

فى كثير من الأديان أركان تقوم عليهـا دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الانسان من الهلاك أو ضياعه فى هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان فى كتاب الدين فاذا هى معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون الى حكم القرينة ، ويجوز لمن شـاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف فى حكم من أحكام الكتاب المبين ولا فى ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التى تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ..

هو الكائن المكلف ..

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » وأشرف فى التقدير ..

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك

ليس الكائن الناطق بشىء ، ان لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف وليس الملك الهابط منزلة تهدى الى طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار اليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء

انما الكائن المكلف شىء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة موضوع فى موضعه المكين بالقياس الى كل ما عداه ..

أى شىء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية ..

انها عجيبة لا يدفع عجبها الا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين ..

انها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذى ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب «العقل» بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل « درسا » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يئول اليه ..

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الاشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..
العقل روية وتدبير ..
العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد .

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً)

« سورة آل عمران »

***

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)

« سورة الروم »

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظاته جميعا اذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الانسان بالتكليف فى القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز فى مصطلحات الأوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة فى ذهن كل قارىء لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ فى هذا الكتاب ان الأمر فيه

يجرى على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة .

انها الرسالة التى لم تعرف قط فى التاريخ البشرى قبل تمييز الانسان بخاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبينات الاقناع ..

كانت الأمم ــ قبل البعثة المحمدية ــ تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعان بها على رد الضائع واعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود فى دفعه قبل نزوله . فجاءت نبوءة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده الى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب فى الانسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه ..

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم .. وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعييها قبول الاقناع ..

انها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم اذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاّ مَاشَاءَ اللهُ . وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون)

« سورة الاعراف »

نعم .. ولا اغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء بين الأخذ والعطاء :

(قُلْ لاأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ . إِن أَتَّبِعُ إِلاَّ مَايُوحَى إِلَىَّ . قلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلاتَتَفَكَّرُونَ)

« سورة الانعام »

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة ، يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبى الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته

وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى بينات الاقناع :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاء فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون)

« سورة الحجر »

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنا فى تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الانسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الانسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير ..

فنبوات بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم . وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره والتكفير

عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسبانه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر فى عبادة اله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أولعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها ..

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) « سورة البقرة »

***

ان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون ، قد اختتم سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

(قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ . قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) « سورة النساء »

***

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) « سورة سبا »

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ يَأْكلونَ أَمْوَالَ النَاسِ بالبَاطِلِ وَيَصدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) « سورة التوبة »

***

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ) « سورة التوبة »

***

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالا نوحِيَ إِلَيْهِمْ . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ) « سورة النحل »

***

فاذا سمى ختام النبوة باسمه الحق فى تاريخ الانسان ، فاسمه الحق انه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى « عصر العلم » فلا يفهم منه الا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسيغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هـذا النبى ، كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه . فهـذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طبيعة منقادة بين يديه .. فان جاز فى حقه هذا « الحكر » المغتصب ، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته على اخلاف دعواه ؟

ان اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير فى عقل يطيق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم . ولو كان احتكار النبوة باعث النبى الى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها ادعاء النبوة أصلا وهى لا تخول النبى ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيب المجهول من مشيئة الله

ولكن الايمان بالعقل المسئول ، هو الباعث البين الذى يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين على الضمير ، وان انتظامه كله على هـذه السنة المتفقة لهو الآية الناطقة بارادة الله

روح وجسد ...

عقيدة الروح احدى العقائد الغيبية فى القرآن .. والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن اليها ضمير الانسان، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لاتعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الايمان والاسلام : اسلام الأمر كله الى الخالق المعبود..

وعقيدة الروح احدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وان وجب على العقل الانسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ..

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقتين : خلقة الانسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الانسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك .. وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن اباحة المحرم :

(يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ماأَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لايُحِبُ المُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مِمّارَزَقَكُمْ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتقُوا اللهَ الذى

أنتم به مؤمنون) « سورة المائدة »

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف فى انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

(يَأَيها الذينَ آمَنُوا أَنفقُوا منْ طَيِّبات ما كَسبْتمْ وَمِمّا أَخْرَجْنا لكمْ منَ الأرْض) « سورة البقرة »

(يَأَيها الذينَ آمَنُوا كلوا منْ طيِّبات مارزقْناكمْ واشْكرُوا للهِ إنْ كنتمْ إيّاهُ تعْبدُون) « سورة البقرة »

***

ومن تمكين الانسان فى الأرض أن يبتغى فيها معيشته ويسيم[1] فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد فى شيء من خيراتها يخرجه لنفسه أو تخرجه له الأرض من فضل الله :

(وَالخيلَ والبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مالاتعلمونَ ، وَعَلَى اللهِ قَصدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائرٌ ولو شاءَ لَهَداكم أجْمَعِينَ . هُو الذى أنْزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتونَ وَالنَّخيلَ وَالأعنابَ وَمِنْ كلِّ الثمرَاتِ . إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ) . « سورة النحل »

***

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب فى هذا موجه الى بنى آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الانسانية ، ومن تمييز الله لهذا الانسان على سائر الحيوان :

(يابَنِى آدَمَ خذوا زِينَتكمْ عِنْدَ كلِّ مسجدٍ وكُلوا واشربُوا ولا تسْرِفوا

---

(١) يسيم مطيته : أسام الراعي الماشية أخرجها الى المرعى .

إِنهُ لا يحبُّ المسرفينَ . قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينة اللهِ التى اخرجَ لِعِبَادِهِ والطيباتِ مِنَ الرزق)

« سورة الاعراف »

***

(ولقدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأرض وجعلنا لكمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

« سورة الاعراف »

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيه العقل وتتمزق به أوصال الضمير

وقوامه فى خطاب التبليغ للانسان من بنى آدم كافة :

(وَابْتغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تنْسَ نَصِيبَكَ منَ الدُّنْيَا)

« سورة القصص »

***

فليس السعي فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام[1] بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الانسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير اسراف ولا جور عن السبيل :

(وَمِنْهَا جَائِرٌ . وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

ان القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائض التفكير ، ولا ينحيه من نقائض التكليف وحسب ، أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول الى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى.. كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر

---

(١) فصام : انقطاع وتصدع .

ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا ــ فى الدين والعلم ــ من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمـادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام ..

***

ان هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قـد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان

ان العقل ليعلم اليوم ان ذرات التراب وذرات الضياء ، من معدن واحد ، وان الحجر اليابس يتفتت فاذا هو شعاع ، وان الشعاع المطلق ينعقد ويتقابل فاذا هو حجر ، وان الفيصل[1] بين ضياء الفلك وضيـاء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هـذا الأمر على العلم كخفائه على الايمان ..

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقول عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علما ما قال به قارىء الكتاب ايمانا حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالايمان :

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتم مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)

« سورة الاسراء »

---

(١) الفيصل : السيف القاطع ، والقضاء بين الحق والباطل وحكـم فيصل أي ماض .

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى الكون ..

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى الانسان.. ورتبوها على حسب صفائها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهى هو العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الانسانى أو العقل المنفعل Pathetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف .. فعندهم أن الروح أقرب الى عنصر النور ، وأن النفس أقرب الى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلوطين ان العقل الالهى فيض منعم صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفائها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاهبهم الصوفية ..

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس الى الكائنات العضوية جميعا ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها من الارادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح ، فانها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه ..

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، والانسان له نصيبه من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال فى

جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتريد على درجات ..

ان هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية الى كثافة المادة ويقاس من ناحية الى المثل الأعلى ، وهو الله

وقد يقاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانية الى الجوهر بمقدار ارتفاعه ، والى المادة أو الهيولى بمقدار هبوطه ..

ولكن كمال هذه القوى فى لغة القرآن مقيس الى كمال الله جل شأنه .. فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها الى الصفات الالهية ، وأدناها وأخسها ما كان أبعدها من تلك الصفات ..

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد تتبين أن « الروح » هو أقربها الى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية ، وانه الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر الوجود المطلق .. لا قدرة للعقل الانسانى المحدود على الاحاطة به ووعيه الا بما يناسبه من الاشارة والتقريب :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً)

أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربهما الى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الارادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزهقها القتل ، والقوة التى تحس النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة .. فهى القوة التى تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة

(الله يَتَوفى الانفُس حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

« سورة الزمر »

(وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ بالليلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنَّهارِ)

« سورة الانعام »

واذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فانما هو قتـل الانسان أو الناس على حسب الخطاب الى الفرد أو الجماعة :

(مَنْ قَتَلَ نَفساً بغيرِ نفس أو فسادٍ فى الارْضِ فَكأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

« سورة المائدة »

(وَلاَ تَقْتُلُوا أنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) « سورة النساء »

(ثمَّ أَنتُمْ هؤُلاءِ تَقتُلُونَ أَنفسَكُمْ وَتخرجونَ فَرِيقاً مِنكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ)

« سورة البقرة »

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

(وَأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النفْسَ عَنِ الْهَوَى فإنَّ الجنةَ هِيَ الْمَأْوَى)

« سورة المنازعات »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية» تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هى انسان واحد فى جميع هـذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية الى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وان لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول ..

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء

---

(١) جرحتم : اكتسبتم وارتكبتم .

النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة ..
فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) « سورة يوسف »

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (١) ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٢) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (٣) « سورة الشمس »

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) « سورة القيامة »

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الأعذار :

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) « سورة القيامة »

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) « سورة الفجر »

وفى كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى .. فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهما كما تقدم خاصة الكائن المكلف المسئول

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) « سورة المدثر »

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) « سورة الانبياء »

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) « سورة آل عمران »

---

(١) فجورها وتقواها : خيرها وشرها . (٢) زكاها : طهرها من الذنوب، أو أنماها بالعلم والعمل . (٣) دساها : أخفاها .

(إِذَا السَّمَاءُ انفطرَتْ .(١) وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتثرَتْ .(٢) وإِذَا البحارُ فُجِّرَتْ .(٣) وَإِذَا القُبُورُ بُعثِرَتْ .(٤) عَلِمَتْ نَفسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخرَتْ . يا أيها الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بربِّكَ الكَرِيمِ الذى خلقكَ فسوَّاكَ فعَدَلَكَ .(٥) فِى أىِّ صورَةٍ ماشاءَ رَكَّبَكَ) « سورة الانفطار »

(وَإِذَا النفوسُ زُوِّجَتْ .(٦) وَإِذَا المَوءُودَةُ سُئِلَتْ .(٧) بأَىِّ ذنبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذا السَّماءُ كُشِطَتْ .(٨) وَإِذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ .(٩) وَإِذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ .(١٠) عَلِمَتْ نَفسٌ مَا أَحْضَرَتْ) « سورة التكوير »

وجملة ما قيـل فى معنى « النفوس زوجت » أنها تقرن بمقوماتها وأعمالها أو تضم الى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل.ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فان الانسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الانسانية ، وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول..

فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله.. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق الا بايمان والهام

---

(١) انفطرت : انشقت • (٢) انتثرت : تساقطت متفرقة • (٣) فجرت : فتح بعضها الى بعض • (٤) بعثرت : قلب ترابها وأخرج موتاها • (٥) عدلك : جعلك متناسب الاعضاء • (٦) واذا النفوس زوجت : قرنت الارواح بالاجساد• (٧) الموؤودة : البنت المدفونة حية • (٨) كشطت : نزعت • (٩) سعرت : أوقدت • (١٠) أزلفت : قربت •

الأمانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات فى خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى فى آية من « سورة البقرة » بوديعة المال وما اليه . اذ قال تعالى فى سياق وثائق الديون :

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوه ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالْعَدْلِ وَلاَ يأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلمه اللّهُ) ... إلى قوله تعالى : (فإِنْ أَمِنَ بعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وليتقِ اللهَ رَبَّهُ) « سورة البقرة »

ففى هـذه الآية خصصت الأمانة بما يؤتمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

(وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كما عَلمهُ اللّهُ)

وكل ما ورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام ، وان ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ الى جميع المخاطبين بآيات الكتاب

جاء فى سورة النساء : إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

قال الامام الزمخشرى فى الكشاف : « الخطاب عام لكل أحد فى كل

أمانة .. وقيل : نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال : « لو علمت انه رسول الله لم أمنعه » ، فلوى على بن أبى طالب رضى الله عنه يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده الى عثمان ويعتذر اليه ، فقال عثمان لعلى : « أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا » . وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. »

ومضى الامام الزمخشرى فى تفسير الآية الى أن قال : « وقيل هو خطاب للولادة بأداء الأمانات والحكم بالعدل، وقرىء الأمانةعنى التوحيد»

وفى الجلالين ان الآية « وان وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع » ..

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « ان الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة وأن النبى عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول ان الأمانة « كل ما أؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ، وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وان الخطاب موجه الى الناس عامة والى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد فى سورة المؤمنين :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

فهى تشمل كل ما يرعاه الانسان من عهد وذمة . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأنفال ، وعلى هذا المعنى ـ اجمالا ـ يفهم كل تبليغ خوطب به الناس عامة وان تنزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الأمانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة الى أحكام التبليغ ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحي وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب .. وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليقة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التى تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها الا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلوم جهول .. ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التى تهديه الى عملهـا .. وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط[1] به معرفة الحدود . وانما يوصف بالظلم والجهـل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالين

***

قال تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[2] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا)

« سورة الاحزاب »

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا)

« وكثيرا ممن خلقنا » فى هـذه الآية تشـمل كل مخلوق لم يكن أهلا لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف بما أودع فيه من فطرة التكوين ولقد وضح معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل

---

(١) تناط : تعلق . (٢) أشفقن منها : خفن .

اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف . فمن لم يذكره من المفسرين بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهى ملازمة له لا تنفك عنه .

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذى فهم من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام الى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة فعظّم أمرها وفخّر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وإباؤها واشفاقها مجاز ، وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، تريد انه لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدتها »

***

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة : « انا عرضنا الأمانة أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السماوات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه ... »

قال الامام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة : « لم يكن إباؤهن كإباء ابليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما ان هناك السجود كان فرضا ، وها هنا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما ان الاباء كان هناك استكبارا وها هنا استصغارا : استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ... وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم

تدرك الشعير الذى تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل . قالوا : والى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء» ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن الا على مدرك الأمرين . اذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فان المخاطب يسمى مكلفا كما أن المخاطب مكلف ... »

***

وقال الامام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ... عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : انى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها .. فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب .. وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ... وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها :

***

« قال مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وغير واحد أن الأمانة هى الفرائض .. ثم أورد الامام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها ، وعقب عليها قائلا انها كلها ، لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها »

وجاء فى تفسير الامام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « إنا عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها ، مما فعلها منه الثواب وتركها منه العقاب..»

وقال الامام محمد جمال الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« .. عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليهـا وأدائها من غير اخلال بشيء من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام ــ التى هى مثل فى القوة والشدة ــ مراعاتها ، وكانت ذات شعور وادراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها . . أما قوله تعالى : وحملها الانسان أى عند عرضها عليه ، اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده ، أو بتكليفه اياها يوم الميثاق ــ أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى .. وقوله تعالى : انه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الجمل وغايته للايذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل، أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ... »

***

ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هـذه المعانى ، ثم نقل تفسـير الفيروزبادى لمعنى حمل الأمانة ، اذ قال : « فأبين أن يحملنها وحملها الانسان ، أى أبين أن يخنها وخانها الانسان . قال : والانسان هنا هو الكافر والمنافق .. »

***

ولا نختم هذه المقتبسات قبل أن نعود الى الاستدراك الذى بدأناها به ، وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وان الاختلاف على المذام التى تترتب عليه انما هو الدليـل على معنى الاستعداد الفطرى للمذام وما عداها ، أو على معنى الوقوع فى المذمة بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها ، وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها

الا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى اذا روجت الآيات التى ورد فيها ذكر صفات « الانســان » بمعنى جنس الانسان فانه يذكر بهذه الصفات فى مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع والضرع والتفضيل على كثير من خلائق الله ، وذكر ظلم الانسان وجهله مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر فى غير هاتين الآيتين بقبوله للخير والشر مع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذاك وفيه الاشارة الى أمثاله من الآيات :

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ، وَأَنَّ الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيما ، وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَىءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) « سورة الاسراء »

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الانسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام

---

(١) أعتدنا : هيأنا وأعددنا ليوم .

التكليف والحرية

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية القدر ، وفى قضية الايمان ، وفى قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهى فى ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال فى فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر الى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهى فيه الى قرار، لأنه يبحث عن شىء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان ..

فى القرآن خطاب متكرر الى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع اسناد الارادة اليه فى استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة الى الله ، وتقرر انه — سبحانه وتعالى — هو الخالق المقدر الذى يقدر الهداية والضلال ، ويعطى كل شىء خلقه ويهديه ، وهى آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وان لم تبلغ فى الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير

***

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) « سورة ال

***

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

مُخلصِينَ لَه الدِّينَ كَمَا بَدَأَ كُمْ تَعُودُون . فرِيقاً هدَى وَفرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلاَلَةُ) .. « سورة الاعراف »

***

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالذى قدَّرَ فَهَدَى)

« سورة الاعلى »

***

ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) « سورة ابراهيم »

***

(يُثَبِّتُ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِينَ وَيفْعَلُ اللّهُ مَايَشَاءُ) « سورة ابراهيم »

***

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فمعناها الظاهر الذى لا تأويل فيه ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده ويخلق ما يعلمون

أفى هذا تناقض فى حكم العقل اذا نظرنا الى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر الى النصوص ، أو الى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص ؟ ..

ان الرجوع بالقضية الى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفى التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال ..

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من

تراكيب المـادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمـادة مجردة من الفكر والارادة ..

وليكن التكليف ارادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء ..

فكيف يتصور العقل ارادة الانسان على كل احتمال ؟

انه لا يتصورها ارادة مطلقة من جميع القيود ، لأن ارادة انسـان واحد تنطلق بغير قيد هى قيد لكل انسان سواه ، وكيف يأتى هـذا الانسان الواحد بإرادته المطلقة منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ ..

اما أن يوجد الناس جميعا بارادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هى الاحالة[1] العقلية فى الفرض والتقدير ، قبل الوصول بها الى الايجاد والتحقيق ..

فاذا كانت الارادة المطلقة هى ارادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير ارادة لهم شىء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هذه الحالة الا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين فى العمل الصالح الذى يساقون اليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل اذن للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للانسان على الجماد المجرد من الحس ، فضلا عن الحيوان ..

فإذا وجب تكليف الانسان ، فالعقل الانسانى لا يوجبه الا كما ينبغى أن يوجب على حالة واحدة لا سـواها ، وهى حالة الارادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغى أن تودع ، وهى لا ينبغى أن تودع الا على هذا الفرض الذى يدعو اليه القرآن ..

ان الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغى أن تكون فى احتمـال العقل المدرك المميز الذى يهتدى باذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال ان الحرية التى تخلق ليست بحرية .. فان الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين ؛ وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما تتمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس ،

---

(١) الاحالة : أحال الرجل احالة أتى بالمحال وتكلم به .

وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فان صنعنا للآنية الذهبية وللآنية النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين

وليس فى العقل شىء يسمى حرية مطبوعة ، تعلو على الحرية المخلوقة بالانطـلاق من جميع القيود .. لأن الانطـلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ..

***

واذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها ارادة ، فلنرجع الى العقل لنرى كيف يتصورها العقل ــ أى عقل ــ وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال ..

انها لا تكون سواء فى كل انسان ، لأنها اذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

واذا امتنع فيها كل هـذا الخـلاف فليست هى بشىء ، اذ ليست الموجودات التى لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هى عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولا عقاب

فاذا وجد المخلوق حرا ذا ارادة فلا وجود له الا بهذا الاختلاف فى حكم العقل كيفما كان حكم النصوص

واذا قضى العقل بهذا دون سواه ، فالعقل هو الذى يتصور ارادة الله وارادة الانسان على احتمال واحد دون سواه ..

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان ، اذ كان كل ما عدا حرية « الايمان » فرضا غير معقول ، بل غير موجود

***

ونحن اذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف اذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائض الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل

واعتماد العقل على الايمان

وانما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا من المتدينين والمنكرين ان الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله ـ اذا تقبله ـ وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه النظر وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع

هذا ايمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا الى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب .. فاما عقل ولا تصديق ، واما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

*** .

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان ..

ان الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله وابطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة الى التصديق بالغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان ، لأن انكار هذه الضرورة نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل الى الايمان بموجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الايمان ولزومه ـ منطقا ـ قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذى يصح أن تؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود ..

والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به ادراك العقل المحدود ..

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ..

هى احدى اثنتين .. اما انكار الجزاف[1] ، واما تسليم بحقيقة تفوق ادراك العقول ..

---

(١) انكار جزاف : أصل الجزاف وصف للبيع من غير وزن ولا كيل . وانكار جزاف أي انكار لا يستند الى برهان أو قياس .

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أضل له من كل تعطيل ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد للانكار ..

***

ان الموجود أنسرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذى نريده بالايمان ، وهذا هو حقه فى ايمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالوجود المطلق الذى ليست له حدود ..

أفيقول العقل اذن : « لا ايمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الموجود الذى يصح فى العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول ايمان بغيره ؟ ..

العقل لا يقول هذا ..

والعقل اذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه ايمان ..

ان العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو المسئول أن يستمع الى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

***

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا ان لم تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء ارادة الخالق وارادة المخلوق ..

اسرة واحدة ...

خيل الى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف الى الياء ، وان تعريف شيء من الأشياء فى عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه ولاعادة بحثه ثم اعادته الى الاصطلاح بمدلول جديد

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل فى كل عصر ، وفى كل علم ، وفى كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من خلائق هذا العالم ، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر اليه كلما تبدل النظر الى الوجود بأسره

ولم يتبدل النظر الى مركز الكرة الأرضيـة من الأجرام السماوية ، حتى خيـل الى كثير من الفلـكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ..

وقد أعيد النظر الى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقـة الأحيـاء التى عرفوها باسم الأوائل Primates وهى فى الذروة من طبقات الحيوان اللبون (١)

وأعيد «تصنيف» هذا النوع الحيوانى فذهب بعضهم بعيدا فى تقسيمه الى عناصر، والى الرجوع بكل عنصر منها الى نوع من القردة الأوائل ، كما سيجىء فى الكلام على آراء النشوئيين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا انه نوع واحد لم يرتابوا فى تقسيمه الى « عناصر » أو سلالات تكاد ـ لولا التناسل فيما بينها ـ أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم ان تجارب العلم لم تثبت امكان التناسل بينها ، ولم تنف امكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القردة المشابهة للبشرية ، ويجب أن تتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الانسانية كلها قابلة للتوالد فيما بينها ، كما يتوالد ذكور الحيوان ، واناثه

---

(١) الحيوان اللبون : الحيوان الذي يرضع صغاره .

من النوع الواحد بغير عائق للنمو فى دور الحمل ودور الطفولة .

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآرية » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى خيل الى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لأنه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر آن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان ..

***

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب قرن من مذهب دارون : « ان التفرقة بين عناصر النوع الانسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الانسانى الى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر فى افريقية وبلاد الملايا والقارة الاسترالية . فاذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان الى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين الا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم »

فحوى هذا ، ان فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام

***

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان ــ علما ودينا ــ فى موضعه

الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح انه « ابن ذكر وأنثى » وانه ينتمى بشعوبه وقبائله الى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

(يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« سورة الحجرات »

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود ، وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها اله واحد : هو رب العالمين

***

فاذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فانما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة . فينجم عن هذا ما لابد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرارخلقها ، وعرفانا بخالقها، واقترابا فيما بينها، وتضطر اليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها الى بعيدها :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)

« سورة الروم »

وهذا هو حكم القرآن فى وحدة بنى الانسان ، وفى تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافتراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« سورة يونس »

***

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

« سورة البقرة »

***

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

« سورة هود »

***

(وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

« سورة المائدة »

***

ان هذه الوحدة فى صلة الانسان بالانسان مشدودة الازر[1] بالوحدة بين الناس كافة فى الصلة بالله ــ ربهم ورب العالمين ــ الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لايقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب الى التقوى واستباق الخيرات :

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ)

« سورة البقرة »

***

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَى إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

« سورة الكهف »

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

« سورة الانبياء »

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« سورة الانبياء »

---

(١) الازر : الاحاطة وموضع الازار من الحقوين والظهر . والقوة والضعف

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم أن يتريث علماء المقابلة بين الأديان طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة ، وفى تاريخ الفكر ، وفى تاريخ القيم الأخلاقية ، بل فى تاريخ الحياة الانسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول الى هذا الأوج السابق الذى ارتفعت اليه بعد ألوف السنين ، وما كانت لترتفع اليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين ..

انها لم تكن كلمة فى موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول فى تسبيح المعبود كيف يقول ..

انها لم تكن لفتة من لفتات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد فى تيه من السحر والكهانة ، ثم لا تبالى أن تعود الى خلفها كما تعود الى أمامها ، على غير هدى ..

لو كانت كذلك لذهبت فى غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ بها أو استمع اليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغه لو لم يعتدل اليه فى مطلع الطريق ، وهيهات ــ على غير هــذه القبلة ــ أن يتنظم للانسان مسلك معقول الى الرشد والضمير ..

ان قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب لا ينظر اليها ..

وان هذه القيم لغو عند اناس يحيق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط عليهم الغفران وما صعدوا اليه ويتقلبون بين النقمة والنعمة بغير جريرة من اثم وبغير شفاعة من توبة ، وبغير نية للاساءة ولا نية للتكفير ..

ان العالم الانسانى كلمة غير مفهومة عنــد من يدين برب غير رب العالمين ، وان قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات

والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وان « الانسانية » الجامعة شيء لا وجود له قبل أن يوجد « الانسان المسئول »

وانما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانسان والانسان مع الاله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم الى الخيرات

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة ، وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هى هذه التقوى ، وعلموا حقا ان موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « التقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تسابيح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل .. فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى » وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الفدم[1] وللمجدود على المحروم ، وللغنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل — بالايجاز — على كل مفضول

وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، الا خذلهم فى طائفة غيرها .. بل فى أكثرها وأحوجها الى الموازنة والتفضيل

فليست « جملة » الانسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير

---

(١) فدم : بفتح الفاء : العيي القليل الفهم .

هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فان العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء .. ولكنه قد يؤوب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ، ولكننا اذا حكمنا بأن انسانا يفضل انسانا بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لا مراء فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الانسان ، وكل قيمة تحسب للانسان فهى داخلة فى هذا الحساب ، فان جاز أن تهمل ويبقى الانسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهملة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الانسان

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

صدق الله العظيم .. انه لهو القسطاس الذى ينشىء « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة والهاما من الوحى الالهى وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحى الالهى فى هذه المساواة انها قد شرعت للانسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم واجراء من « اجراءات » السياسة فى ابان الخطر المطبق ، خيفة من ثورة النفوس وتنافسا على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب .. فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ، ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحى رب العالمين . ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة تعليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشىء يسمى الديموقراطية ولا رضخ « الديموقراطيون » المتأخرون بشىء لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات . ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الانسان الأول ..
خلق من تراب .. وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة .
وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة ..
وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لإرادته وانتصارا لعقله على جسده ..

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن فى هذه الآيات :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) « سورة المؤمنون »

(ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ الذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ من طِينٍ ثمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) « سورة السجدة »

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ (١) مِنْ حَمَإٍ (٢) مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) « سورة الحجر »

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قال : إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلَائِكَةِ فقال : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . قَالَ : يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

(١) صلصال : الطين الجاف فاذا طبخ فهو الفخار . (٢) حما مسنون : طين مملس .

فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا (١) الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ..)

« سورة البقرة »

***

هذه قصة « نشأة آدم » فى القرآن ..

وهى احدى قصص الخلق والتكوين ، وفى هذه القصص جميعا من أمر الغيب ما هو حق الايمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الانسان وسائر الأحياء

ولباب القيم جميعا ان الفضيلة العليا ارادة وتجربة ، وليست منحة يبطل فيها التصرف ويمتنع فيها التمييز ..

فاذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منه الحسنة كما تأتى منه السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا يريدهما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة فى سبيلها ، فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة ..

---

(١) أزلهما : أزله : أزلقه وحمله على الزلل .

وعلينا أن نمعن بالتصور مدى آخر ، وراء هـذا المدى من تاريخ الانسـان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسـة الخلق والتكوين » على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال الفرض والتقدير

اننا نعلم من سياسة الخلق ان الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الانسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصـغار وثقل بعضها وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير التى تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن خلائق العقل التى تفردت فيها العقول عن الأبدان ..

والعقل الانسانى يأبى أن يصدق ان هذا الكون خلو من معدن العقل الا أن ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الانسان

أقرب الى تصديقه ــ ولا نقول أقرب الى ايمانه وكفى ــ أن سياسة الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول، كما تصرفت فى مقادير الأبدان الى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز ..

تلك سياسة الخلق التى أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم مداها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التى تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هـذا الكيان الموسوم بالانسان ..

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة الى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم .. ان النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض الى السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء الى الخلاق الحكيم

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يترسم[1] مسلك الحياة من المبدأ الى المصـير على هـذا الطريق الخفى البين ، فانه لعلى الجادة فى كل مكان يردها الى الأرض ولا يقطعها عن الله

---

(١) يترسم : ترسم الدار : نظر رسومها وتأملها . والحافر والباني : تفرس ، نظر أين يحفر أو يبني .

الفصل الثانى

الإنسان
فى مذاهب العلم والفكر

عمر الإنسان ..

نبدأ هذه الفصول عن الانسان فى مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الانسان فى هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة النوع الانسانى مرتبط بكل بحث عن أصل الانسان فى جميع المذاهب ، ولاسيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، فى تقرير مكان الانسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء

ونرى ان هذا المذهب أول المذاهب التى يتعين بحثها هنا ، لأنه أحرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذى يقصر على موضوعه الأصيل ، فانه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون باعادة النظر فى موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده .. فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التى جاء بها النشوئيون ..

وسنبسط القول فى هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع فى حيز هذه الرسالة ، لأنه — على كل فرض من الفروض — دعوى فى قضية الانسان يستمع اليها ولا تهمل كل الإهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها — كما نعتقد — أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التى وصل اليها النشوئيون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة الى حين . ولنبدأ بالكلام فيما يلى عن عمر الانسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شىء منه وبين شىء مما ورد فى آيات القرآن

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الانسان ، ولا نعلم ان ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليقة غير الديانتين البرهمية واليهودية

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التى تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون بغير أجل معروف فى البداية أو النهاية . وعند البرهميين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة . وقد يزاد هذا القدر أو ينقص فى تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهى عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى . وكلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من دورات الوجود السرمدى عودا على بدء الى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهى على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٩٥٦ ، تدل على ابتداء الخليقة فى شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . وقد شرح أسانيده التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد

Annales Veteris Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ الى نسخة التوراة التى ترجمت على عهد الملك « جيمس » ، وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة فى متونها

وظل هذا التاريخ معتمدا فى طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير.. ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير السنين والأيام التى وردت فى صدد الكلام عن الخليقة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا الى أن اليوم الشمسى وان السنة الشمسية تساوى مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت فى اليوم الرابع كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التكوين ..

« وقال الله : لتكن أنوار فى جلد[1] السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض . وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا »

***

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شىء يدعوهم الى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة بالقياس الى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين الى بعض الكواكب انهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد السيد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وابراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققة لا تقل ثبوتا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء فى الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

---

(١) جلد : بفتحتين : كرة الهواء .

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات ، فقاس النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا الى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن أحيانا فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين

***

وأحدث المقاييس العلميـة التى تقاس بها عصور ما قبـل التاريخ مقياس الكربون المسمى بكربون (١٤) تمييزا له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى .. فان العالم الأمريكى « ويلاردليبى » Willard Libby صـاحب الدراسات المـأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد ــ قبيل منتصف القرن ــ ان نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيهـا حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة الى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيهـا من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حيـاة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقـايا على حسب المقـدار المتحلل من ذلك الكربون . فاذا كان هذا المقدار نصفا ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، واذا كان ذلك المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألف ومائة وست وثلاثين سـنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لخطـأ التقدير ..

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية ــ قفل تاريخ الانسـان على

الأرض راجعا الى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية ، وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة ، وتنسب الى الطبقة العليا بقايا الانسان التى وجدت فى الأقاليم الغربية من القارة الأوربية ، والى الطبقة الوسطى بقايا الانسان التى وجدت فى أواسط القارة ، وأقدم من هذا بقايا الانسان التى وجدت فى القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها فى القدم أو أقدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التى وجدت فى القارة الافريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكى » Leaky — فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ — ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاى » بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى Zinjanthropus ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب «كاسر الجوز» لضخامة فكه وضروسه ، ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر وزمن تكوين الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان

وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم الى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن ايغالها الى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات

الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للارادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد ..

***

أما الانسان فى مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعنى بانسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية فى مصالحه المشتركة . وقد وجدت فى وادى النيل آثار الانسان المقيم الذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض فى تدبير طعامه وأسباب معيشته ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب الى الطلاسم(١) السحرية أو الى أشكال الزينة ، وانها ــ على هذا ــ لتعتبر مقدمة لازمة نشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع

***

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل فى صدد الكلام عن تاريخ الانسان ، وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل

كان هيرودوت ــ الملقب بأبى التاريخ ــ يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى فى كتابه الثانى عن كهنة الفراعنة انهم يقدرون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع

(١) الطلاسم : جمع طلسم : وهو خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر . والسر .

بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت فى مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية فى التقويم القديم وهذه السنة الشمسية فى تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة واحدى وستين سنة ، ولا سبيل الى ادراك هذا الفرق فى أمة تجهل الرصد والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور فى تاريخها الطويل (١)

***

ومما يذكر ، ولا يهمل ، فى صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التى سماها القارة الأطلسية ، وذكرها فى كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيماوس » Timaeus و « كريتياس» Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا فى الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار فى مجاهل الماضى المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت فى موضع المحيط الأطلسى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت فى احدى الكوارث الكونية التى قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها الا بعض الجزر البركانية

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

الا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا فى هذه الرواية منهجهم « التقليدى » فى كل رواية ، تخلفت من العصور الأولى وانتقلت الى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبوها جملة واحدة فى عداد

(١) يرجع الى كتاب فيلوكفسكى Velikovsky عن الدوافع المتصادمة

تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية فى مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خليق أن يوطد الاقدام على بر الأمان ، ويسمح للباحث بالتردد فى الانكار كما سمح له من قبل بالتردد فى القبول ، بل بالتعجل الى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منهـا أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر البـاحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم انما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه ــ عقلا ــ من يقبل شيئا ممكنا ، وان لم يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات

واذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقـد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينبىء الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقـابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولا وعرضا بازاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأسـاطير القارات المفقودة من عالم الأسرار الى عالم الآثار وطالعتنـا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير المحيط الأطلسى ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهـر والأغوار ، وتلك هى قارة « مو » Mu التى ألف عنهـا الكولونيل جيمس شرشوارد Churchivard كتابيه باسم «قارة مو المفقودة» و « أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما الى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز

واشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط

***

وعلى عهدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول مافحواه :

« ان قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع فى المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها الى الجنوب قليلا من خط الاستواء .. ويقدر طولها من الشرق الى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنىعشر ألف سنة ، فابتلعتها لجج المحيط وغاص معها الى قراره نحو ستين مليون انسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمة والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتواتر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى فى سبل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال الى شأو[1] من الحضارة لم نصل اليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس الى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند الى بابل ومصر الا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد فى بعض تفسيراته على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التى انتهى اليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة .. ويقول المؤلف انه لم يأت

---

(١) شأو : الغاية والامد .

برأى من عنده فى كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارىء لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدها وبالأدلة التى تؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد فى الأزمنة الماضية الى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة « مو » نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع تاريخهما على الأقل الى نحو عشرين ألف سنة اذا كانا من مخلفات الحضارة التى بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان ، وقد يرجع الى آماد أبعد من ذلك جدا اذا كانا من مخلفات « مو » التى نقلت الى بلاد القارة الآسيوية .. »

***

والجديد فى قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابى القارة المفقودة وأبناء « مو » ، انها تحدثنا عن الانسان « المتدين » فى تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشوئيين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليقة ، وعن نكبات الانسان فى العصور الغابرة ، كما جاءت فى الآثار الأولى وفى كتب الأديان الباقية ، وغاية مانقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معا ان مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل فى سياق يعرض لتاريخ النوع الانسانى ولمكان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التى تشتمل على النبات والحيوان والانسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ..

والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الايمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولا مناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها الى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرهم القول بهذا التطور الى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار .. فقد تكون عوامل الطبيعة فى مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التى تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل الى غير نهاية ، ولا بد للقائل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية .. وهى لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها

فاذا كان تطور الأحياء يرجع الى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع اليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التى لا أول لها ولا آخر اذا قيل ان الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟

ان أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣)

الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط الى المركب ، وقال عن تطور الحياة انه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفهـا الطبيعية ، ولهذا يحدث التغير للبنية ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وتترقى فى وظائفها تبعا لاتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى ، فلم يدخلها فى حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسّم الحقائق الكونيـة الى قسمين بالنسبة الى المعرفة الانسانية : أحدهما حقـائق الأشياء فى ذواتها وفى أصولها الأولى وهى القسم الذى لا يدرك ولا يتقبل الادراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء فى ظواهرها المحدودة وهى التى يستطيع عقل الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيهـا عمـل التطور اما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام

وأصحاب هـذا الرأى من القائلين بالتطور العام ـ على ترددهم فى مسألة الأصول الأولى ـ لا يتجاهلون هـذه الأصول ، ولا يفوتهم أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا الى المؤثرات الكونية التى تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وان اطلاق القول بالتطور من مبـدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضـوية وتفسيره بالرجوع الى العوامل التى تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تنفعل معها بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلمون بتلك المؤثرات الكونية. ويتركون البحث فيها عجزا عن الوصـول الى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عند الآثار التى يدركونها ويحجمون عمـا وراء ذلك ، فيسلـكونه فى عداد « المجهولات » التى لا تدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبـون مذهب سبنسر فى تقسيم المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للادراك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسـوف الايقوسى هاملتون (١٧٨٨ ـ ١٨٥٦) ومذهب

الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) فى الظواهر والحقائق أو فى الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء فى ذواتها ..

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان : يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهما ــ وهو فريق المؤمنين ــ أنها من صنع الخالق الحكيم ، وان القوة التى تصدر عنها آثار التطور فى الكون كله منذ بدايته لابد أن تكون « قدرة » فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس

والفريق الآخر ــ وهو فريق الماديين المنكرين ــ يكتفى من التفسير بذكر العوامل التى ينسب اليها التأثير واعتبارها طبيعة فى المادة لا تفسير لها الا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التى وجدت عليها

فاذا احتاج الفيلسوف المادى الى القول بالحركة الدائمة ، قال انها عادة المادة فى أصل تكوينها ، واذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال ان المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، واذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض .. فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم اليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء ..

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شىء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل

الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف ان المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنتقل من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها .. ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه فى التطور ليصل منه الى نتيجة فى المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره .. ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته فى احدى النبوءتين بأقوى من حجته فى الأخرى

***

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات يميلون — على الأغلب الأعم — الى القصد فى التفسيرات والتعليلات ، ويتجنبون البحث فى الاصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وانها ترجع جميعا الى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هى الخلايا البدائية ..

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أومذاهب النشوئيين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وانما الجديد منه اسناده الى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمى على مناهج العلماء المحدثين ..

قال به العالم النباتى السويدى كارل لينوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨ /

Carl Linnaeus الذى عنى بتصنيف الأنواع والأجناس فى دراسته للنباتات وبنى على هذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحياء على التعميم

وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع فى البيئة العلمية الانجليزية ، فأنشىء المجمع اللينى فى لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة اليه

وقال به بوفون العالم النباتى الفرنسى (١٧٠٧ — ١٧٨٨) Buffon الذى ألف كتابه المفصل عن التاريخ الطبيعى بمعاونة الأستاذ دوبنتون Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يماثله فى تصنيف أنواع الحيوان

وكان من المعاصرين لهذين العالمين اراسموس دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ — ١٨٠٢) جد دارون الذى ينسب اليه مذهب النشوء والتطور ، فكان رائدا لحفيده فى القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ، وعاش معه فى عصره العالم الفقيه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤—١٧٩٩) Lord Monboddo صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيها » وكتاب « ماوراء الطبيعة فى العصور القديمة .. » ومذهبه فى تطور الا ان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور اللغة ، وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين ..

ويتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى فى القارة الأوربية من شمالها الى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة والاحياء على أساس الوحدة فى قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ، وان كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخر بالسبق العلمى بين الأمم الأوربية

ولكن مذهب النشوء لم يعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسى لامارك (١٧٤٤ — ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين : شارل دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) وزميله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ — ١٩١٣) وعلى

مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم أساس مذهب النشـوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين فى اعتبار العلماء الى اليوم

وكل من لامارك وداروين ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها الى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التى تنتقل بالوراثة متى تغيرت فى تكوين الأفراد ..

***

ففى رأى لامارك ان أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارىء من طوارىء المرض والاصابة ، وان الصفات المكتسبة التى تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض أنها ــ لطول قوائمها ــ كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصـفات المـكتسبة ، يستدلون على بطلان هذا الرأى ببعض الصفات المكتسبة التى شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى فى الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التى تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنابه أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات ــ بالقياس الى الآماد الطوال التى

مرت على تطور الأنواع الحيوانية ــ لايكفى للجزم بامتناع الوراثة على اطلاقها ، وان اهمال الأعضاء بالقطع ليس من شــأنه ــ ضرورة ــ أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا فى قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها

ويلجأ النشوئيون ــ على رأى دارون ووالاس ــ الى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليــد الحيــة على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها ..

فالزرافة ــ عندهم ــ لم تنقل صفة مكتسبة الى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ أعالى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ما عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله ــ مع الانتخاب الطبيعى ــ لأن الأفضل من ذكور الحيوان واناثه يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد

وليس مثل الزرافة فى رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لامارك ، لأن المعترضين عليه يقولون ان قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف كما يبيد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وان ذكور الزراف أطول أعناقا ــ فى الغالب ــ من اناثه ، فهى خليقة ان تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق ..

الا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى .. فلو أن دارون نظر الى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر الى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتــاز بالقدرة على الجرى بفعل

الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى فى وقت واحد ، لأنه يفلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف الى أماكن المرعى كلما اضطرته ندرة المرعى الى الانتقال من مكان الى مكان ، وقد صح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض

***

وبعد المقارنة بين الرأيين — رأى لامارك ورأى دارون ووالاس — يتضح انهما ينتهيان الى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فان لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فهى منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد الى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطىء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشوئيين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك ان دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الايجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول ان الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن ابادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى الى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، أن تنتهى الى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وان أسباب الفناء عجزت عن ابادتها كما أبادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومه .. فانها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وان قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق ..

وقد كان خطأ النشوئيين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه

المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات) Geneties وظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chromosome فى نقل الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات الى الأبناء ..

فكل صفة لا تكمن فى الناسلة ولا تحتويها صبغيـــة من صبغياتها فهى صفة عارضة لاتنتقل الى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج ــ أحد ثقات هذا العلم ــ ان الانتخاب الطبيعى ــ لأجل هــذا ــ لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل نشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع البقاء ، ثم تفتح البــاب لعمــل الانتخاب الطبيعى فى المستقبل عند التفاوت فى تلك المزايا الموروثة بين الأفراد . وانما تنشــأ هذه المزايا بعمل من أعمــال الطفرة Mutation يكفى لاحــداث التغيير المطلوب فى الناسلة وفى صبغياتها التى تنقل تلك المزايا بالوراثة ، وقد أمكن العلم بالخواص التى تنقلها كل صبغية من الصبغيات فى بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير فى الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال ان الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل اذا نفذت الى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجىء كما يعللون الاختلاف الطارىء على النبات فى الألوان والأحجام والأشكال ..

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث فى أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدى التجربة فعلا الى ظهور خاصة فى الحشرة تغير ذريتها فتخالفها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة الى « منــدل » صــاحب التجارب المشهورة فى وراثة الحبوب . ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشــعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم « الدرسفيلة » Drosophilia فان تعريض الذبابة منه للأشعة يغير ذريتها ، فتأتى مخالفة لها فى لون العين أو فى طول الجناح . ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك فى أجيــالها

المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب الى الأعقاب ..

***

ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذاهبه قبل تقدم علم الناسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ واذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة الناسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين صفات الانسان الفكرية والروحية ؟ .

ان النشوئيين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية ، وأجابوا عنه اجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ، ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، وداروِن يقول انه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من النشوئيين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم ، فان ابن سينا — مثلا — كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب الى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة ، فيقول انه لا ينبغى هذا الفعل ولكنه ينظر الى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشوئيون جميعا على منهج بوفون وداروِن أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين — وعلى رأسهم ارنست هكل — ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته الى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتنزل فى جذورها الى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية Marmosets وقلما تحتمل الجو فى الأقاليم الشمالية ،

ومن دونها الليمور Lemur قرد مدغشقر ، وهو موضـوع فى شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشوئيون القردة العليـا ـ صـعدا ـ من الجيبون الى الأورانج ، الى الشمبانزى ، الى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم[1] الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين .. فأدناها ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج الى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة اعتدال العمود الفقرى وعظـام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وارادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشوئيون ان « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المذنبة ، وتتدرج ـ صعدا ـ الى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحول اليد الى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار . ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالب القدمين واليدين

ويذهب أحد النشوئيين المحدثين الى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السـنين ، وان القردة العليـا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية الى ما دون تلك المرتبة بكثير أو قليل ..

وصاحب هذا الرأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن انسان جاوه الذى وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها الى ما فوقها وهبط منها الخلفـاء الآخرون الى ما دونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى الى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد .. فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد ، وزنوج افريقية والشمبانزى

---

(١) أديم : أديم الارض والسماء ما ظهر منهما .

والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص التشريحية ..

***

ومن المفارقات ان هؤلاء النشوئيين النسابين لم يبلغوا بالقرد ذلك الشبه الذى تصـــورته طائفة من الأقدمين قبـــل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس .. فان تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسى ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يباعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة النسب تحتاج الى علم التشريح لالتقاط المشابه التى ترجح القول بوحدة الأصـــول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثركيث ـــ من أكبر النشوئيين المتأخرين ـــ فى كتابه شجرة نسب الانسان : « ان الأستاذ وود جونس لفت النظر الى بقاء علامات كثيرة فى تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليـــا وعامة القرود ، وان هـــذه القردة العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعى تعديل شجرة النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحيـــة أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها.. فالغوريلا تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القرود، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب فى تركيبها المتماسك من كبد الانسان ، ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده تركيب كبد الجيبون »

ثم يستطرد الى بيان الشبه بين الانسان والقردة الافريقية فيقول : « ان الانسان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها .. ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة

في نوعين من الحيوان ، ويوجد هـذا النمط الانسـاني في كل من الشمبانزي والغوريلا ، وان كانت الجيوب في الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا في أنف سلف الأورانج ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الأنف كله في هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا .. وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزي أقرب استجابة الى الاتصال بدم الانسان من جميع القرديات.. وتبلغ العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزي والغوريلا نسبة الى سائر العلامات التي أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار في المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات ستكتشف يوما في افريقية تبين السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزي والانسان »

***

هذه هي العلامات التشريحية التي انتهى اليها أصحاب شجرة النسب من النشوئيين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه التشابه لا يعدو أن يكون العادة لتصوير المشابه العامة التي يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة الى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شابيمان بنشر » Pincher في كتابه عن تعليـــل التطور ، ثم عقب عليهـــا قائلا : « انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة متفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب الانسان ، اذ كان الانسان قد نما اليه خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد ـ فوق هذا وذاك ـ أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال »

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشري وسائر أنواع الأحياء بمقاييس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوئي فيقول انه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحي في تعبير الدينيين ...

التطور قبل مذهب التطور

ان اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمنة مجهولة ، وتدرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتواتر فيها الأخبار والأساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشيعين بالانتسابات .

ومرد هذه الأخبار والأساطير — على الأكثر — الى جعل الأوائل يوظائف الأعضاء ، وجعلهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وامكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل في النوع الانساني فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلبي من نوعه صالح عندهم للتوليد من أنواع الأحياء

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها .. ولكن العلة غير تلك العلة ، مردها — على الأرجح — الى الملاءمة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء .. ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعالم عمله في التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، والاشتراك الأحياء وغير الأحياء في مباحث الكيمياء ، ثم جاءت في مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابي في شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ان « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، الى أن تنتهي الى أفضلها الذي لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات (١) ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابي على هذا الترتيب في التفرقة بين الانسان والانسان ،

---

(١) الاسطقسات : العناصر الاربعة وهي الماء والهواء والتراب والنار ، عند الاقدمين .

بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى

ويقول الكتبى (١) وهو يتكلم عن طبائع القرد : « ان هذا الحيوان عند المتكلمين فى الطبائع مركب من انسان وبهيمة ، وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة الى الانسان »

ويقول القزوينى صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام الى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها الى العضوى وغير العضوى ، ان « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فان المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية .. »

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد الى المشابهة بالنفس شبيه باحتراس النشوئيين المحدثين عند التفرقة بين الانسان من جانبه الحيوانى ، والانسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ..

ويقول اخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى ان أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلى الحيوانية النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشىء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن الا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها .. وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلى الحيوانية ، وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وان كان جسما نباتيا .. وفى النبات نوع

(١) محمد بن شاكر بن عبد الرحمن الكتبى الدارانى ، ولد فى داريا من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ واشهر كتبه المطبوعة « فوات الوفيات » ..

آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وان كان جسمه جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك ان هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات ، ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف الى الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات.. وان أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له الا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فاذا أحست رطوبة ولينا انبسطت اليه وان أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، الا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج اليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج اليه لكان وبالا عليها فى حفظها وبقائها . فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له الا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « ان الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها ، فان الجماد منها اذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة . فاذا بلغ الى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك

الزيادة هى الاغتذاء والنمو والامتداد فى الأقطار واجتذاب مايوافقه من الأرض والماء وترك ما لايوافقه ونفض الفضلات التى تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه هى الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد ، وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد ، وهذه الحالة الزائدة فى النبات التى شرف بها على الجماد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شىء بعد شىء .. فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه فى حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فلذلك هو فى أفق الجمادات وقريب الحال منها .. ثم تزداد هذه الفضيلة فى النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذى يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ماقبله .. ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى كفضل الثانى على الأول ، ولايزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى أفقه ويصير فى أفق الحيوان ، وهى كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه .. الا أنها — بعد — مختلطة القوى ، أعنى أن قوى ذكورها وأناثها غير متميزة ، فهى تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن فى هذا الأفق الى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك انها ان قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات .. فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر ، كالنخل الذى طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها ، ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهى الاطلاع من الأرض والسعى الى الغذاء . وقد روى فى الخبر ما هو كالاشارة أو كالرمز الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه الى ذكر الحيوان بما يشبه طول المحدثين عن أسلحة الحيوان فى تنازع البقاء ، فيقول ان الحيوان : « ان كان ضعيفا لم يعط سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه . وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر ، والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين(١) . فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها .. فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى الى استعمالها كلها .. »

ثم يتدرج الى أقرب الحيوان الى الانسان ، وهو « الذى يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها وقبل زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها ..

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود الا بمرتبة يسيرة ، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصيروا الى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، والى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل الى آخر أفقه .. فاذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق

---

(١) الطبرزين : الفأس من السلاح .

الملائكة ،وهذا أعلى مرتبة الانسان .. وعنـدها تتـأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها انها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى اليها بعينها . ودائرة الوجود هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة ، وهى التى تدل دلالة صـادقة برهانية على موجدها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده[1] وتقدس ذكره »

الى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج الى العلوم الشريفة المكونة التى مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى ثم الوصول به الى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الإلهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الالهى ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التى ترقيت منها أولا فأولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها فى وجودها ، وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يصل الى ما قبله ، واذا صار انسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار اما حكيماً تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية ، واما نبيا مؤيدا يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسـطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين .. »

وفحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعى ينتهى الى غاية وسع الطبيعة من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان الى ما هو أعلى وأرفع وأقرب الى الملأ الأعلى..

ولابن مسكويه بحث كهذا فى كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة ، وهى ما سماه بالمركز فيقول : « ان أول أثر ظهر فى عالمنا هذا

---

(١) تعالى جده : الجد هنا بمعنى العظمة .

من نحو المركز بعـد امتزاج العناصر الأولى ـ أثر حـركة النفس فى النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء ، وللنبات فى قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، الا أنها مقسمة الى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه فى تهذيب الأخلاق الى آخر مرتبة الحيوان وهى « مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقته الانسانية ، وليس بينها الا اليسير الذى اذا تجاوزه صار انسانا »

***

وأشار ابن خلدون الى هذا التدرج ـ أو التطور ـ فترقى به من المعدن الى القرد الى الانسان ، وعلل اختـلاف النـاس بتأثير الاقليم وأحوال المعيشة على الأبدان والأخلاق ..

قال : « ان عالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذور له ، وآخر أفق النبات مثل النخل ، والكرم ، ستصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها الا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعـده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريجه التكوينى الى الانسـان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته اليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع الى الدعوات أو اللعنات ، فيقول ان « بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات ، توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد ..

وانما دعا عليه أن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غير . وفى القول بنسبة السواد الى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول فى موضع آخر : « استولى الحر على أبدانهم وفى أصل تكوينهم ، فكان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق الى الوهم من القول بتدرج الكائنات ، اذ يخيل الى الجاهلين بمعناه أنه يعنى تنقل الكائنات فى درجة من مراتبه الترقية ، وانما حقيقته كما قال الخازنى : « انا اذا قلنا ان الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك انه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار فى النهاية انسانا »

فليس عندهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التى هى دونه ، وان كان جميع المتكلمين فى أطوار الكائنات الحية لا يمنعون امكان التسافد[1] بين بعض الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء فى كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على الخصوص اسهابا سلم فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين به فى هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزوينى صاحب عجائب المخلوقات ، فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق الأسطورية التى انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب المخلوقات التى تتواتر الأحاديث عن وجودها فى الأطراف النائية التى لم يصل اليها أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمغررين ، وهذه الأساطير — كما قلنا فى غير هذا الكتاب (١) — تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هى البقية الباقية لنا من

---

(١) كتاب « الفصول »

(١) التسافد : تسافد الطير نزا بعضه على بعض .

تلك الأوهام التى تسلطت على العقل البشرى فى أزمانه الخالية ، وهى المفتاح الذى ليس لدينا مفتاح سواه لخزانة المخيلة ، وما أكنته من تصورات الانسان ووجدانه وما انطبع فيها من البدائه العميقة المتغلغلة التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهـذا الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يتشاكل منها فى البر والبحر.. فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا أنها تلد من خيل الأرض ، ومنها انسان الماء ويشبه الانسان الا أن له ذنبا . وقد جاء شخص بواحد منه ـ على قول القزوينى ـ الى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء الى الحاضرة انسان ، وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل ، فاذا رآه الناس يستبشرون بالخصب . وحكى أن بعض الملوك حمل اليه انسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فقيل للولد : ماذا يقول أبوك . قال : أذناب الحيوان كلها على أسافلها ما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم . ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح الى جزيرة ... « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهـذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة فى فهم الصور البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الانسـان وغرائزه الوراثية ، ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « مسودات » للادراك الانسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل اعلان مذهب النشوء فى الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير فى البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على اعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه فى ابلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الدينى أو العلمى من أشباه هذه الحملات التى قوبل بها فى بلادنا الشرقية يوم انتقل اليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلى :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقى الأثر الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب فى دايتون (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذى حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التى سجلت أثناء المحاكمة بين محامى الدفاع وخبير الاتهام :

ـ هل تقرر أن كل ماورد فى التوراة ينبغى أن يقبل بتفسيره الحرفى ؟

ـ أنا أقرر أن كل ما ورد فى التوراة ينبغى أن يقبل كما ورد فيه . وبعض ما جاء فى التوراة قد ورد فى سياق التشبيه ، كقوله : « انكم ملح الأرض » . فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحا أو انه كان له دم من الملح ، ولكننى أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار ..

ـ هل لك أن تخبرنى يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

ـ كلا ياسيدى .. لست أدرى

ـ ولا على وجه التقريب ؟ ..

ـ لست أحاول .. ولعلى أقترب من تقدير العلماء ، ولكننى أحب أن أدقق كثيرا قبل الجواب

ـ انك لا تعبأ كثيرا بالعلماء .. أتعبأ بهم حقا ؟

ـ نعم ياسيدى ..
ـ أتعتقد ان الكرة الأرضية صنعت فى ستة أيام ؟
ـ ستة أيام نعم .. ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة

***

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان الى التشهير بالعقائد الشائعة وبالمذاهب العلميـة التى كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التى رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء

الا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون الى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ فريق منهم فى تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى انكاره بالأدلة العلميـة التى استـند اليها العلماء ولايزالون يستندون اليها الى هذه الأيام ..

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على اعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينيـة ألفه الأستاذ ث.ب.بيشوب وسماه « النشوء منتقدا » (١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيهـا روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل ابراهيم الى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيهـا النصـوص والشـواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشوئيين بالدليل . لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا الى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون .. حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « انه

---

(١) Evolution Criticised

لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا الى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات ، وان تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض التطوريين دليلا على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى ارنست هكل ، فانه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الأجنة لتقص الرسم المنقول

***

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند الى أقوال العلماء المختصين .. فقال ان حصان الحفريات على أقدم صوره لم يثبت من نسبته الى نوع الخيل غير الأسنان ، وان الطائر الذى قيل انه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة الى الخالق فالعالم التطورى الأمين على علمه لا يتخذه سببا من أسباب الالحاد ، وكذلك كان والاسى مؤمنا بالعقل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، اذ يقرر جازما باعتقاده « ان ما نتطلبه — اطلاقا — ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتخرفة التى نراها حولنا ، وانه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى ارشادها وتدبيرها وحسب ، بل انه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المادية »

ويتخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان أنها ترتبط بالمعنى « الروحية » التى تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها فى القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية

الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل التذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها انما تستعاد فى هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التى تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث فى مذهب النشوء بما دعت اليه من بحوث متشعبة فى تنازع البقاء وارادة القوة ، وفى تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفى هذه السنة ــ سنة ١٩٤٥ ــ تدفقت الكتب التى تعرض لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين فى هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين فى حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر فى أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما اطلعنا عليه كتاب « الله والانسان فى الكون » (١) الذى توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرفون وجهات النظر «الكاثوليكية» فى تحقيق كل فلسفة تبحث فى الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعى وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث فى مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التى تتوالى فى كل زمان بأساليب وعنوان

***

وقد استفاد مؤلفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التى انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين فى الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا فى التفصيلات التشريحية التى كانت مجملة فى الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الانسان ، ولاسيما الفارق المميز للانسان الناطق.. وهو قوام الفصل بين النوع الآدمى وعامة الأنواع العليا ... فهذا الفارق الواسع فى الملكات العقلية يقابله فارق دقيق فى تكوين الدماغ ، بين السلالة الناطقة بغير هذا التركيب الانسانى الخاص بدماغ الانسان دون سواه :: فالرأس

---

(١) God, Man and the Universe

الانسانى يحتوى جميع المناطق التى وصفناها فى رءوس القردة ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى المناطق الثانوية .. أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك .. فهناك مركز للنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطق بغير تعطيل عمل اللسان والشفتين..كذلك تستتبع آفات البصر عجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزا عن فهم الكلمة الملفوظة وان تيسر سماعها . ويضاف الى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكولوجية .. ولا يوجد غير الشمبانزى بين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف »

***

وعلى هـذه الوتيرة المطردة يؤدى هؤلاء العلماء اللاهوتيين أمانة « العلم الطبيعى » لابراز مواضع الشبهة فى أدلة مذهب النشوء وقرائنه التى لم ترتفع الى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقا خفيا منهـا الا وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التى يستند اليهـا النشوئيون للقول بتحول النوع الانسانى من الأنواع الدنيـا .. بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات ، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات ..

***

وقوبل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه

بالأدلة العلميـــة ، وطلبوا من دعاته دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى فى تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان .. فالمعترضون عليه ـ طلبا للأدلة الطبيعية ـ لايقلون عددا ولا اعتراضـــا عن المعترضين اللاهوتيين . وقد أيده أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له ايمانا بحقيقته واعترافا بكفاية براهينه . فمن هؤلاء العلماء ـ بل من أشدهم حماســة له ـ توماس هكسلى صـــديق دارون وصهره ومدره[1] المذهب كله فى حياته ، فانه لم يزعم قط ان أدلة الانتخاب الطبـــيعى المؤيدة لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ، وانما كان يقول ان الانتخاب الطبيعى يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم تتقبل مبادىء الانتخاب الطبيعى ، كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء مارك . ويرى العالم البيولوجى الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، انما هى نظريـــة منطقية وليست بالنظرية التى تعتمـــد على شواهد التجربة والأدلة الحســـية . قال فى رده على هربرت سبنسر : « اننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعى » وأن قول هربرت سبنسر : « انه اما أن تحدث وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الاطلاق » انما هو دليل منطقى وليس بالدليـــل التجريبى ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم فى قضـــايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل

***

وبقيت هـــذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعى الى اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشوئيين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨) بدفع حاسم لشكوك المترددين فى قبول تحول الأنواع وقد كتب دوبزانسكى Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون فى مجموعة : « قرن من دارون » (١) فلم

(١) A century of Darwin

(١) مدره : مدره القوم : زعيمهم وخطيبهم والمتكلم عنهم .

يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التى تحول دون تلاقى الناسلات والصبغيات فى أرحام أفراد الحيوان المتميزة ، وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التى تحول دون تلاقى الفردين من نوع واحد أخذ فى التبـاعد والاختـلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والاناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسـلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام الى تمام تكوين الجنين

***

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقـل الآن من سلسـلة الأنواع الى سلسـلة الناسـلات Genes والصبغيات .. وان الأمل فى الوصول الى هـذه الحلقة من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد رينش أسـتاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن « التطور فوق مستوى الأنواع » (١) ليشرح هذه الفكرة ويبين ان عزل النوع انما يتم بانعزال ناسلاته وان البحث فى تاريخ تغير الناسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول الى الحلقة التى تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشىء شروطا جديدة للنسـل والوراثة فتعتبر بذلك حدا فاصـلا بين نوعين .. فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموغلة فى القدم ، ولكننا اذا اكتشفنا سر تطور الناسـلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فها هنا محل الحلقة المفقودة فى سلسلة الأنواع

---

(١) Evolution above the Species Level.

مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب داروين ـ على ما يظهر ـ أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العامة .. فانه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوربية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكري الغرب وقرائه ، وتكرر هـذا كله في الشرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه الا بعد الثورة المفاجئة التي يظهر ـ كما أسلفنا ـ أنها مقدمة لا بد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه

وقد تصدى للرد عليه في الشرق الاسـلامي عامة ، والشرق العربي خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبـل كأنه مذهب يستلزم انكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل انسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم

وقلما يتصور القارىء العصري ان مذهبا كمذهب التطور يشيع في الشرق العربي قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذي بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها في زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية .. لأن القـارىء العصري يحسب أن مذهب التطور قد وصل الى الأمم الشرقية وهي في «جاهلية» لا تبالغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن «جاهلية» القرن التاسع عشر لم تكن في شرقنا العربي حجابا دون المذاهب الفكرية التي يطلع عليها الأوربي المثقف في حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب

التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب الانسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شىء كما تحدثوا عن مفاخر الأمم بالأصول الانسانية وبالأنساب التى يدعيها انسادة لأنفسهم وينكرونها على الرعايا المستعبدين

***

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم العربى ، وقد وصلت أصداء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك المفكرين الى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائلين بهذا القول داروين ، وقد ألف كتابا فى بيان ان الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمنم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان الفوقاسى

« وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك .. فان سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، الا ظنا ، وأصولها نضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟.. أظن لا سبيل الى

الجواب سوى العجز عنه ..

« وان قيل له هـذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا فى الألوان والأشكال والأعمال ـ فما السبب فى هـذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ فى الجواب الا الى الحصر ..

« وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق من الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فماذا تكون حجته فى علة اختلافها .. بل اذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصـها وخداجها (١) وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وابداع كل منها قوة على حسبه ونوطها (٢) بكل قوة فى عضو أداء وظيفته وايفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. لاريب انه يقبع قبوع القنفذ وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين ..

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه فى مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسـان ، وكان ما أخـذ به من الشبهة الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية

« وانا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك ان الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية ، وانما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور الميـاه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان

(١) خداجها : الخداج بالكسر : النقصان ، وكل صلاة لا تقرأ فيهـا فاتحة الكتاب فهي خداج أي ذات خداج . (٢) نوطها : نوط الرجل الشيء علقه .

البـلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ..

« ومن واهيـاته ما كان يرويه داروين من ان جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم ، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب .. كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت اذن هـذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن .. والى الآن لم يولد واحد منهم مختونا الا لاعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة .. فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصـدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البـديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة فى نظام الكون علوية وسفلية .. والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متيير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وادراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الادراك تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصور الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانيـة تراعى بما يلابسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية . هـذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية ـ نسبة الى ديمقريطس ـ ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما

يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ؛ اذ لايمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين ، فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء ..

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيها بما ينويه من مطلبه ؟ .. وأى برلمان أو أى سنات ــ مجلس شيوخ ــ عقدت للتشاور فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ .. وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته اليهما ؟ .. »

***

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة داروين » لمؤلفه الشيخ «محمد رضا آل العلامة التقى الاصفهانى» وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكربلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والافرنجية التى وصلت الى الشرق الاسلامى بعد كتابة « الرد على الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ؛ ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها اليه نولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب حيث يقول ان داروين وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتبا غير موجودة عندنا » وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب الى زمن وصولها لولا الباعث الدينى وظننا انه يوجب علينا المسارعة ؛ ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى دليل قد فرغ هؤلاء من اثباته أو كبرى حجة مذكورة فى كتبهم برهانها ، وأنا أقترح عليهم أن يخابرونا بما يجدون منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الانصاف لا المكابرة »

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التى تخالف الديانة الاسلامية دون سائر الديانات ؛ ولكنه أراد أن ينقض

أدلة الالحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على اجمالها ، وقال فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين .. ولهذا ترانى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا الا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة الا ليسرى ازراؤه الى الشرائع قاطبة .. »

وأنصف المؤلف مذهب النشوء ، فلم يحسبه من مذاهب الالحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى انكار الخالق وانما يتسرب اليه الالحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء انها « ليست مما ينافى الدين ، اذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع اله واحد قادر حكيم قد وسع كل شىء علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، واما كيفية الخلق وان هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وانها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ، والجد الأعلى للفيل فيلا أو « سنونوا » يطير فى الهواء ، فإنه أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرحة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للالحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف ان هذه الآراء « ليس فيها الا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر؟.. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ،

والشجر من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا الا بعد ما يجعله حامضا ، ولا يجعله حامضا الا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف الى تلخيص آراء النشوئيين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع الى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا الى القردة كما انتسبوا الى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك الى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه واعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « ان أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام جعفر الصادق على المفضل بن عمر الجعفى ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان فى كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التى بها يفهم من سائسه ما يومىء اليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ، حتى أنه ليقرب من خلق الانسان وشمائله .. أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها[1] اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وانه لولا فضيلة فضل بها فى الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم .. على أن فى جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم[2] والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

وينتقل المؤلف الى كلام الدميرى ، اذ يقول عن القرد انه « أشبه الانسان فى غالب حالاته ، فانه يضحك ويطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشىء بيده وله أصابع مفصلة الى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشى على رجليه حينا يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشىء من الحيوان سواه فهو كالانسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الاناث ، وهما خصلتان من مفاخر الانسان ، فاذا زاد به الشبق[3] استمنى بفيه ، وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل

(١) سنخها : السنخ بالكسر : الاصل من كل شىء . (٢) الخطم بالفتح من الدابة كالقلب والبعير مقدم أنفها وفمها . (٣) الشبق : بفتحتين شدة الشهوة .

المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى .. »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الانسان صارت نفسه تحاكى النفس الانسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول ان الانسان ــ كما يشابه القرد فى أشياء ــ يشابه غيره من الحيوان فى غيرها « بل لعل فى الحيوانات الدنيا من شبه الانسان أقساما لا توجد فى العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة.. وهذا الأستاذ الشهير « كوفييه » يقول ان ادراك القرد ليس أرقى من ادراك الكلب الا قليلا .. واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الانسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الانسان تحوّل قردا .. وهذا ما نص عليه الذكر الحكيم »

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الانسان والقرد ، مضى يناقش القرائن الأخرى التى يستند اليها النشوئيون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع الانسانى من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات العليا ، فنهج فى مناقشته على هذا المنهج الذى يستمد الدليل من أصول الجدل المنطقى تارة ومن تجارب الواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعاته المتفرقة لمراجع المذهب .. فلم يخطىء مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده الغالب على منهج النقائض الجدلية . ومن قبيل ذلك انه عمد الى دليل من أقوى أدلة النشوئيين وهو بقاء الأعضاء الأثرية ــ كالثندوة[1] ــ فى ذكور الانسان ، فتساءل : « لا أدرى لماذا بقى أثر عار الخنوثة ظاهرا فى الانسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه فى سلم الارتقاء كذوات الحافر » ولم ينس أن يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده الى ما قال الشيخ الرئيس فى الشفاء « ان الفيل الذكر له ثدى كما للانسان ، وذكور ذوات الحافر لا ثدى لها الا ما يشبه أمهاتها وينزع اليها كما يعرض مرارا فى الخيل » ..

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل فى باب

---

(١) الثندوة : الثندؤة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة .

« الشذوذات » التى تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهى أجنة فى بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه فى غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانتقلت الى هؤلاء التعساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ .. فان لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل »

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى — وهو سبب هام من أسباب التطور — كمنهجه فيما تقدم : فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لايتوقف تلقيحها على الحشرات والطيور ؟ .. وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو أجمل ؟ .. ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الانسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب »

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملقحة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن حزام .. ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها . وعند أى نبات وجدته لتحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدرى بم يعلل هذا الحسن والانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد الا بعد التلقيح »

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ؛ لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قلتها . وليس هذا الافتراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قلتها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا : فيقال ان أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يتكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة

لكن بما يقربه الى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها فى الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنر وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيدة فى الأصل منها..»

قال : « وهـذا الاحتمال .. وان لم أجد أحدا قال به فى أصـول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها الى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها . والمذهب الثانى أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وانه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ .. وعند الكاتب أن المذهب الثانى أقرب الى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول .. »

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه الى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الانسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » ..

وانتهى المؤلف الى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لاتوجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا الى قول فيرسو العالم الألمـانى : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف (١) مما يجعل العلاقة

---

(١) فطس الانف : انفراش الانف في الوجه .

قريبة بين تلك الطوائف والقرود حتى يحتمل ارتقاؤها من القرود ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار اليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة[1] من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين المشهورين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الانسان والقرد واضح جدا حتى ان كل قطعة من الواحد كافية ليستدلّ منها على النوع المقطوعة منه .. فالأدلة على النشوء الفعلى قاصرة جدا لا يبنى عليهـا حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية .. »

***

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشـده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشـاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستندوا فى انكاره الى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشوئيين بمزيد من الأدلة القاطعة لاثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفى فى مثل هذه الحالة أن تستند النظرية الى الترجيح والتغليب أو الى الظن والتقدير ، وقد يعزى الى هذا السبب كثرة الدراسات التى تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة فى البلاد التى كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التى كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ونم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحورانى ، والأب جرجس فرج صغير المارونى ، والأسقف خير الله اسـطفان ، والدكتور حليم عطيـة سوريال ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ،

---

(١) قدة . السبر يفد من الجلد .

وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلى شميل » فى موضوعه ، وهى مؤيدة للنشوئيين المنكرين للأديان

فالأستاذ ابراهيم حورانى ــ وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية ــ ألف فى الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء » ثم أتبعها برسالة « الحق اليقين فى الرد على بطل داروين» وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور شبلى شميل » لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف فى المذهب وهو افتقاره الى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التى توحى بالرأى ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال

***

وقد آثر الأستاذ حورانى أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : « ان العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم انه بحث فيه عشرين سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع انه من أشد الناس ميلا الى القول بالارتقاء بفعل الله .. ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته : ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان ولا بد من القول بخلقه رأسا .. ومنهم الأستاذ فرخو قال : انه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك .. ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لايمكن تأييده وانه رأى من آراء الصبيان .. ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرد أن الفروق بين البشر والقرود أصلى وبعيد جدا .. ومنهم العلامة أغاسيز ، قال فى رسالة فى أصل الانسان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمى باطل فى الواقع ، وأسلوبه ليس

من أساليب العلم بشيء ولا طائل تحته .. ومنهم العلامة هكسلى وهو من اللاأدرية وصديق لداروين ، قال : انه بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى ، ومنهم العلامة تندل وهو كهكسلى قال : انه لاريب فى أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها .. ومن المحقق عندى أنه لا بد من تغيير مذهب داروين » ..

ويقسم الأستاذ جورانى أنصار مذهب النشوء الى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية والهية .. « أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللاأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احداهما الانسان ابن القرد أو صنوه(١) ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الالهى الذى قالت بامكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا »

ثم أورد الأستاذ جورانى احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال : ان ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شيء من بقايا الحفريات

ويرد الأستاذ جورانى على استدلال النشوئيين بتشابه الأجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول : ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز الا لوزة »

ويحيل النشوئيين الى بحث التيرانولوجيا ـ أى المشوهات ـ لتفسير

---

(١) صنو : الصنو بالكسر أحد الفروع التي تخرج من أصل واحد ، وهما صنوان ، والاخ الشقيق .

الأعضاء الأثرية التى تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أى من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء[1] ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتى السجايا والأخلاق

وقال عن الانتخاب الطبيعى انه لايمكن « أن يكون أس الارتقاء الداروينى لأن الطبيعة انما تؤثر فى الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم، فيمكنها أن تعمى العيون.. ولكنها لاتستطيع أن توجد البصر «ويقتضى مذهب داروين أن لا تجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء »

***

وأضعف ما فى ردود الأستاذ حورانى قوله عن قدم الانسان ، اذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوئيين وغيرهم انه أحدث الأحياء وانه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان فى ثانى العصر الجليدى وهو المعروف بالأكثر أحدثية ، وفصل ذلك فى خطبة له فى الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين فى زمن نشوء الانسان فاتفقت على انه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة .. »

وفى ابان احتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس فرج صغير المارونى مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قرنة شهوان (١٨٩٠) كتابا نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سمى أحدهما بالانسان القردى وسمى الآخر بالانسان الآدمى ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمى ــ أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل انسان ..

---

(١) الاحقاء : جمع حقو بفتح الحاء : الخصر .

أفهل عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شيء من ذلك ... فالانسان القردى لا يكون له وجود ..

القردى ــ ان المباحث البالونتولوجيــة « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما يُعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات .. على أن أساتذتنا قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما يتحول الى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وان منها ما قد يتحول الى الماعز ومنها الى الخرفان ... الخ

الآدمى ــ فان كان ذلك من طوالع المحتمــل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقى الذى تعولون عليه .. ؟

القردى ــ نعم .. اننا لم نجد الى الآن أثرا الى الانســان القردى ، غير أن العلم لم ينه قضاءه

الآدمى ــ ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع .. فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وان كثرت فيها الأنسال ، فان قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردى ــ ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلمــاء لا يكادون يتفقون على شيء منه .. ؟

الآدمى ــ أو يكون الجهل فى أصل شيء أو فى علته حجة فى انكار وجوده ، أفنفقه ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق .. ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها .. انا نعلم ان المولود من قران الفرس والحمار لا يكون الا عاقرا ، فنقول : لا بد من فرق نوعى فى مولده ، .. أفجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من انكار وجوده ..

القردى ــ .... الا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بامكانية مذهب التحول ..

الآدمى ــ لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : ان الله سبحانه قد جبل آدم من تراب

قد عركه كثير من المولدين من الخازباز[1] الى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال .. ومن العجيب كيف لا يفقهون ان هذا المذهب انما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

القردى ــ أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

الآدمى ــ اذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لابد من تعويض نفس بنفس .. أما هذا التعويض فيتم اما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم اقامته أو ملاشاته ثم اقامة آخر بدله

القردى ــ قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول ان التمايز انما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى، فما قولك فيه ؟..

الآدمى ــ قد سبقهم الى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة .. ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل الصدفة فى تمايز الكائنات

ان الصدفة لا تقع الا فى الأشياء التى يمكن لها أن تكون على خلاف ماهى .. فقد يمكن للطاولة التى يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التى هى من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ماهو، مثل الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التى تصدر عن فاعل لا يصادمه فى فعله شىء ، كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادمها فى فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة .. أتظن أن للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ..

.. ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال انما تلى تمايز الأشياء ولا تسبقها .. أو لا ترى أن السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل

---

(١) الخاز باز : ذباب يكون في الروض .

من آلاتها فى موضعه على هيئة من التمايز لاينبغى أن يشوبه أدنى خلل»

***

ويفضى هذا الحوار الى عجز « الانسان القردى » عن الجواب فيتبعه صاحب الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب المـاديين يستند فيها الى حجج الفلسفة اللاهوتيـة ، ويقرر فيها أن العلوم الطبيعيـة وحدها لا تكفى لتحقيق النظر فى أصل الوجود من حيث هو موجود ، ولهذا سمى البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغى أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمراد به علم يبحث عن الوجود من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معنيـاتها وأحوالها الخاصة التى ينحاز بها الشىء عما سواه ، وعلم يبحث به عن الأسباب الأخيرة للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ، لأن مبادىء المعرفة والعلم العالية المطلقـة انما هى التى تمكننا من الوقوف على أسـباب الوجود .. ولذلك فانه يكون علم العلوم »

***

ولا نعلم أن كتابا فى هذا الموضوع بقلم باحث مسيحى من كتاب اللغة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين فى حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذى ألفه بعـد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سنة (١٩٢٩) أعيد فى خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلى شميل فى هذا المذهب ، ونشط البحث بين الأوربيين فى نظريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضاربة فى نظريات تنازع البقاء وارادة القوة وما اليها من « الفلسفات » التى آثارتها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف الى الأطوار التى مرت بمذهب دارون منذ اعلانه الى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألمانى ادوارد فون هارتمان قال فيه انه « فى سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفذاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفى سنة السبعين أخذت هذه النظرية تنتشر فى كل صقع تقريبا ، وفى سنة

الثمانين كان نفوذ المذهب الداروينى عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس[١]، وفى سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتلى وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبينت واتضحت ، وفى العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب آن تكون معدودة ، وكان بين مضاديه وداحضى حججه من أعلام العلماء ايمر ، وغوستاف وولف ، ودى فريز Vrise وفون والشتين Wallstin وفليشمان Flischmann ورينك Reink وغيرهم كثيرون »

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوية فقال :

« ان البحث العلمى عندما يأتى بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحى وغير المسيحى عليها على غير تصاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغاير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما انهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الداروينى المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر الى ماينافض حقائق الوحى المقدس ، غير أنهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطفاء هينين .. فمن هؤلاء العلماء الأهوناء المتئدين الأب واسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات الميال الى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصلية أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب الأليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ .. فانك بهذا ترى أن مبدأ الخلق والابداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق الأنواع الجديدة بالتحدر والتسلسل محل التصور القديم لثبات الأنواع على عدم التغير كانت حكمة البارى فى الجديد أمجد منها بالقديم ، من وجه أنه عز نواله وجل جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور جديدة لموجودات حية بدون افتقار الى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة للكون ونواحيه والمعتنية بحفظها

---

(١) سمت الرأس : هو في العلم الفلك نقطة من الفلك تكون فوق رأس الانسان الواقف .

وادارتها . وحينما تتصادم نظرية ما مع التعليم المسيحى تصادما واضحا غير قابل الشك .. يجب وقتئذ رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به الخلقة قطعا بدون رجعة ، يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل نظرية تنكر خلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الانسان هو قول معقول لهذا هو مقبول .. لأنه ليس فى الكتاب الكريم ما ينافيه أو ينقضه . أما بالنظر الى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الجسد .. فقد ارتأى بعضهم ان المقصود بقوله جبله من تراب الأرض أنه قضى ورسم الصورة وهيأ الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والابريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكى والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفترق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان »

***

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الانسان عن غيره من الحيوان ، وهى تتلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى المتحجرات .. »

ثم سأل الأسقف : « اذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ » فكان جوابه : « اننا نجيب مع العلماء النزيهين المجردين من الأغراض والأهواء بالنفى ، وانه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « ان النشوء بجميع مذاهبه لا ينفى مقاصد وغايات البارىء عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوئى الكبير والمادى المعروف بين الناس النبهاء سلّم بكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وان ترتب أو توقف مخلوق على آخر او عملهما معا لاتمام مقصد جيد أو اكمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان

والحيوان لهو دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصـــد الله .. فالذى يصنع آلة تعمل هى آلة مثلهـــا ، لهو أحذق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تتعداه .. »

***

وفى سنة (١٩٣٧) ألّف الدكتور حليم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسيوط كتاب « تصدع مذهب دارون والاثبات العلمى لعقيـــدة الخلق » نبّه فيه الى خطأ يسبق الى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فان من كبار العلمـــاء الطبيعيين من يرفضـــه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميـــد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التـــاريخ الطبيعى بباريس وهو القـــائل : « اننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية .. اننا نعلم فقط انها غير قابلة للتحول واننا على يقين بأن دارون ولامارك لم يكتشفا الناموس الحقيقى لطريقة تكوينها »

ثم سرد الدكتور ســـوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الانواع « ان جميع تلك العوامل لايمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية الى نوع آخر وكل التغييرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لاتمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية ـــ مرضية ـــ تقود الى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الايطالى روزا ان الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الانسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون..»

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست بالناقصة بين الانسان وما دونه فحسب « فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيـــوانات الرخوة ولا بين المفصليـــة ، ولا بين الحيـــوانات اللافقرية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيـــوانات البرمائيـــة ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثـــديية ، وقـــد

ذكرتها على ترتيب ظهورها فى العصور الجيولوجية .. »

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلمية : « ان هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهى معرفة كيف استطاع المخلوق الذى يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والانسان ان يعيش بين الحيوانات الضارية التى تحيط به .. فان أصحاب نظرية النشوء يقولون أن هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الانسان الحالى .. فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والدب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ .. »

***

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع — كما شرحها الدكتور سوريال — هى مشكلة المشاكل فى تمحيص هذا المذهب الى اليوم ، وانها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المسكلة عند الاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

ونحن نكتفى بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجال الدين فى مناقشة النشوء ، وهى :

١ — منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب فى جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند الى أدلة قاطعة

٢ — منحى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والايمان بأنه — اذا ثبت — لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، فى الخالق ..

٣ — منحى القول بأن الأدلة العلمية التى يوردها العلماء تنفيه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة العلمية التى يوردونها على تأييده ..

***

أما أنصار مذهب النشوء فى الشرق العربى فقد كان أشهرهم وأفصحهم

بيانا الدكتور شبلى شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه الى الأخذ بالنظريات النشوئية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين الى نفى كل صفة روحية ، أو غيبية فى الانسان ، اذ قال فى مقدمة ترجمته لشرح بخنر على مذهب دارون : « ان الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لايزال مفعول التعاليم القديمة راسخا فى ذهنه رسوخ النقش على الحجر .. فالانسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس فى تركيبه شىء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا ، وكالجماد كيماويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر.. فالانسان يحس ، والحيوان يحس ، والانسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما .. غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلى شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون وبخنر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ ــ ان التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ ــ وان انصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها الى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم فى انصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب ــ الأركوبتركوس ــ الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات » ..

٣ ــ ان العلمــاء يخطئون فى وضع حــدود الأنواع ، وقــد ذكر دارون « ان النبــاتى الانجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : « ان النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النبــات ، فالنوع اذن غير محدود .. »

٤ ــ ان التحولات لا ينبغى أن يبحث عنهــا فى الانواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

***

ولا ننسى ــ عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين ــ ان الدكتور شبلى شميل انما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة الى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا انما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المرءوس الى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الانسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين »

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتونى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعللوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم .. ألقت اليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فانه ــ وان حصل ذلك ــ الا أنكم لن تبلغوا أمانيكم لتوفر معدات التقــدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة »

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها مذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هذا المذهب ، وان

الكتب التى اخترناها للاقتبـاس منهـا تمثل جوانب التفكير جميعا فى هذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها .. فاذا أردنا أن نعود اليها لنحكم عليها حكم الزمن المحص للآراء ، فالذى نراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشوئيين الماديين ، فليس من المنتظر أن يُقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمـد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الالهية فى كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الاسلام

***

ولكن الكتاب الذين تناولوا هـذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا ـ دينيا وعلميا ـ فى انكارهم باسم الدين امورا لا تزال قيد البحث بين الاثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن اثباتها بما يقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقلة المعلومات الصحيحة التى وصلت اليهم عن مذهب دارون ومذاهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هـذا العذر قد يسوغ اندفاعهم الى درء الخطر عن العقائد الالهية يوم تعجل ثرائرة التقليـد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب . واتحلوه للثرثرة بأحاديث الالحاد والمروق .. فكان تعجلهم هـذا داعيا الى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين

بيد أنه ـ ولاريب ـ تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث فى نشر كشوفه المتوالية ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين فى الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، وايجابهم

تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض .. كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون ..

لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هذه الغلطة فى التصدى للمذاهب العلمية التى لم ينقطع الشك فى ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكريها أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم على السواء .. فان زلزال المادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الإلهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين ..

***

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضايا الحقوق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين التشريع .. فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها — اذا لم تثبت — اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى العلمية ليست كذلك . ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين ..

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يستطيعوا الاناة لتدبر ما فى هذه الحجة من الضعف والعنت ويعلموا ان التشبث بها الى هذا الحد احراج للخصم من قبيل احراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى لها ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يتوقع أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغى أن يترتب عليها من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الخيل والحمير أو بين الذئاب والكلاب ؟ .. واذا كان القائل بالنشوء

يعجز عن اقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هـذا العجز اليه ولا يحال الى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ .. ان كثيرا من الأحياء الباقية الى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات الأرض ، فاذا جاز هذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شك فى بقائها الى اليوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فليس من الرأى السليم ــ دينا ولا علما ــ أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشوئيين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث . وقد يحدث غدا أن يوجه الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود الينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس ، بخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت فى الخصومة الفكرية وانه لعنت معيب يجوز فى خصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان فى خصومات الأفكار والآراء ..

***

وفى كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم فى شأن الانسان يعنينا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الاسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق ؟ ..

وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الاسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب . فقد يثبت غدا ان المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الاسلام لا يصد عن سبيل العلم فى أية وجهة من هذه الوجهات ، كما سنبينه فى موضعه من الفصل الأخير

الدين ومذهب داروين

نعود فنقرر فى هـذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور أيا كان تفسير القـائلين به لنشـأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند اليه الملحدون لابطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى الى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز داروين والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله

فأولهما ــ شارلز داروين ــ كان يقول انه يستريح الى الايمان بوجود الاله فى هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين

كتب فى سنة (١٨٩٧) الى الأستاذ فراديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « اننى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا اذا كان معنى الملحد انكار وجود الله . وأرى على العموم ــ وبخاصة مع تقدم السن ــ اننى أحرى أن أسمى (لا أدريا) وان هذا الاسم أقرب الى الصواب فى وصف تفكيرى .. »

وقال فى خطاب كتبه الى طالب هولندى (فى الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣) :

« ... يبدو لى ان استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، انما كان وليد المصـادفة ــ هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه ما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التى تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام » ..

وكتب اليه طالب ألمانى فى سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التى يدعو اليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون اليه هذه الأسئلة قائلا :

« ان مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التى ترد اليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعا ، ويود أن يقول ان مذهب التطور يوافق كل الموافقة ايمان المؤمن بالله ...غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا فى تعريفهم لما يعنونه بالاله »

ويفهم من خلاصة رأيه فى سيرته التى كتبها بقلمه ، انه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها الى الوحى الالهى ، وانه لم يقم لديه الدليل على حدوث هذا الوحى فى التاريخ ، ولكنه اذا أراد أن ينظر الى المسألة الالهية من جانب الانتخاب الطبيعى فان أنواع الأحياء كانت خليقة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهى الحجة التى يستند اليها الملحدون فى انكارهم للمقاصد الالهية

وكان دارون على تردده فى مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولايرتضى من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا اليه من عقائدهم الروحية ، فلما اراد كارل ماركس أن يهدى اليه كتابه عن رأس المال كتب اليه معتذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز فى موسكو : « اننى أشكر لك رسالتك الودية ... وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى الى مع شكرى لهذه التحية ، اذ كان اهداؤه الى يتضمن على وجه من الوجوه اقرارى لما فى سائر الكتاب الذى لا علم لى به . واننى — مع غيرتى على الدعوة الى حرية الفكر فى جميع المسائل — أرى ، صوابا أو خطأ ، ان المناقشات المباشرة التى تناقض المسيحية والايمان بوجود الله فلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وان خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة

فى أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية »

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفى وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وان الايمان بأية ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل فى قضية التطور الى الرفض أو الى القبول

أما « الفريد رسل ولاس » شريك دارون فى القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الايمان بوجود الاله .. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل فى الطبيعة أنها لا تجرى على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقى ، وانها كان يجوز أن تجرى على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويماثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وانما هى الارادة الالهية التى أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التى يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطردة فى ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا الى الارادة الالهية على اطراد أو على استثناء

***

ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود يراه فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أوالمترددين، حسب المنهج الذى ينهجه فى تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسى و « هويتهد » الانجليزى ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالأستاذ « جلادستون » الذى يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغاية ، نبدوان من خلال النظر الى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الالهى أو فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر الى الوسائل التى اختارتها العناية الالهية لتدبير مقاصدها منذ القدم ، فنرى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة »

***

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم فى الانكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وانه لا سبيل الى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين

وأشهر القائلين بهذا الرأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الألمانى و « توماس هكسلى » الانجليزى ، وهو أقرب الى الاعتدال فى الانكار من زميله ..

فهيكل يقول : « ان العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهى ــ على خلاف سنن العقل ــ تذهب الى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية ــ أو غير طبيعية ــ وان ذلك الوحى المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل اليها العلم الحديث » ..

وهكسلى يقول : « اننا ــ أمام الأمور التى لا شك فى بعدها عن الاحتمال ــ لا نقول اننا محقون فى طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع

ا. جزة الخارقة .. بل نقول : ان الواجب الأدبى يتقاضانا آن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا اذا كنا ــ بدلا من الوصول الى ذلك البرهان المقنع ــ لا نرى أمامنا الا حكايات نجهل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فاننى أصرح بأن شعورى انما هو شعور الدهشة من أن أرى الانسان العاقل ينظر الى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... »

***

وعلى مثل هــذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ، ولكن هــذا الاختلاف لا يرجع الى المذهب فى ذاته .. وانما يرجع الى طريقة النظر اليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف ، فربما خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنيــة عن البحث فى اثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك فى زمانه ــ لابلاس ــ عن مكان العناية الالهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه انه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول ان قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيرا يغنى عن النظر الى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هــذا الوجه دون غيره ، وانه لابد ــ اذن ــ من البحث عن الارادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة الى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الالهية فطريقته فى التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الايمان بالقدرة الإلهية والحكمة التى

تستدعيها ، اذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيـــدة الدينية : فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لاثبات عقائد الدين

***

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين ان معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند اعلانه قبل مائة ســنة لم يكن من سداد الرأى فى شىء ، وان هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علمـــاء الرياضـــة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملـــكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هـــذه الفكرة ســـواء فيما يرجع الى مذهب التطور أو الى غيره من مذاهب العلم الحديث

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق.. ولكنه لا يبتدىء معه من البداية ولا ينتهى الى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدىء من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع الى مرتبة الوجود الالهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتجب عنه سر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقع له فى ارادة ..

وهـذه السلسلة العظمى كاملة فى انتظامها لكل حلقـة من حلقـات الوجود ، وكل قابليـة من قابليـات الصـفات والاعراض ، فلا تفرغ السلسلة العظمى من احدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشىء قط ولا توجد فى الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ..

***

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب الحـكيم الالهى ، فهو الذى وضح هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية ، وهى ان الاله ــ وهو خير محض ــ يأبى له كرمه أن يضن على شىء ، كائنا ما كان ، بنعمة الوجود .. فمهما يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصـعد من هذه المرتبة الى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق الى الكمال

والراجح ان هذا المذهب وصل من الهند الى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسـبق ناقليه

من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس[١] فى معيشته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ..

وقد كان فيثاغوراس يجتنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية الى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكل السباع ، ويحرم أكل الفول وما اليه لأنه مأكل البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط فى درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهند فى الدورات الأبدية التى يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين الى شمسية وكونية

***

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسّم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم Microcosm الصغير هو الانسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع الى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التى تمت للاله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط الى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفى الانسان شىء من خصائص الأجسام المادية ، وشىء من خصائص الأجسام النباتية ، وشىء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشىء من خصائص الروح الذى يكون للملائكة بغير جسد ، وشىء من المعرفة التى يقترب بها من الصفات الالهية

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان الى العرب ،

---

(١) يتنطس : تنطس الرجل تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه .

وانتقل من العرب الى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩ م) وهو سلفستر الثانى ، وظهرت آثارهما فى أقوال القديس توما الأكوينى والبرت الكبير « ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الأسبانى أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيى الدين ابن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين ــ جوهان اكهارت الألمانى ــ نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم (١) »

***

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبسين من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربى ، ان الله هو الوجود الحق وان كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول فى جملته يعيد الى الذهن قول أفلاطون ان الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتغوراس Protogoras الذى كان يقول : ان الانسان هو مقياس الوجود ، وان الله أنعم على الانسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدى الذى اختص به الاله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض فى النهاية ، لأن أفلاطون يعود فيجعل العقل ــ صفة الله العليا ــ درجة يبلغها الانسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التى تمتزج بالعقل فى تكوين الانسان ..

***

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى الى مذاهبهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلهما مشتركين فى « النفس » النامية ،

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية للمؤلف

وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن فى تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان

وتقبّل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت اليهم من مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الانسان بالايمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التى يتحلى بها الانسان ويعلو بها من أفق الخلائق الدنيا الى أفق النعمة الالهية ، وان الانسان بمعرفته للأشياء يحتوبها ويملكها ويؤتمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فان التناقض بين خلاص الانسان بالايمان وخلاصه من أوهاق[1] المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل الى الايمان بالله والتعويل على البركة الالهية فى تطلعه الى النجاة والخلاص

***

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب الا بعد ظهور فلسفة ابيلارد (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) الذى فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شىء غير ما هو موجود ، لأن الخالق فى علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه وارادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو (١٠٩١ — ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال انه يناقض ما ينبغى أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن انعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان القديس توما الأكوينى (١٢٢٦ — ١٢٧٤) يميل الى تأييد برنارد فى اعتراضه على تفسير ابيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالى على ابن رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول : ان خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التى أودعها فيها لاينفى قدرته على خلق غيرها

---

(١) أوهاق : جمع وهق وهو حبل يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة .

زائدا عليها ، ولا ينفى قدرته على خلقها مرة أخرى فى صوره غير هـذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل فى الممكنات غير مستحيل . وجاء بيكوديلا ميرندولا (١٤٦٣ — ١٤٩٤) Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الانسان لأرفع المراتب وأدناها ، وان كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه الى ما فوقه ، الا الانسان .. فانه لا يتقيـد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذى يرتضيه لنفسه ، علوا الى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا الى مرتبة البهائم والحشرات

***

وعاد البحث فى مكان الانسان بعـد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة ، وعن مكان الانسان على هذا المركز المختار .. فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السـماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هـذه المناقشـة لم تزعزع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها الى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسا عليه ، ظلت فكرة السلسـلة العظمى غالبة على الباحثين فى مركز الانسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين الى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الانجليزى اسكندربوب (١٦٨٨ — ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الانسان ، وقال فيها يخاطب الانسان :

« اعرف اذن نفسك ، ولا تدع الاحاطة بعلم الله
« ان دراسة الانسان المثلى هى الانسان
« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى
« مخلوقا عاقلا فى ظلمة ، عظيما فى خشونة
« أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدرى

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر
« معلقا بين العمل والراحة
« معلقا بين الالهية والبهيمية
« معلقا يتردد بين ايثار عقله أو بدنه
« يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطىء
« يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

« ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة
« وهو هو الذى يسىء الى نفسه أو يتجنب الاساءة
« مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر
« سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا
« وهو الحكم الوحيد فيما هوحق وباطل، ولكنه يضطرب فىخطأ دائم

« ولايزال فخر الخليفة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن »
وهذا هو مكان الانسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى
« التى اذا انكسرت احداها وقع الخلل فى سائرها »
وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيده الفصول (١٧٠٠ ــ ١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

***

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث يعرض لمسألة الانسان ومركزه من الكون فى زمن من الأزمان ، وانما انقطع البحث فترة يسيرة ، ليتجدد بكل ما يستطاع من قوة مع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الأحياء عامة وعلم الانسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذى يشمل اليوم علم الحياة أو « البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية « الأثنولوجى » وعلم الانسان « الأنثروبولوجى » عدا مباحث

شتى تتصل بالمعلومات العامة عن الانسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة وآراء الفلاسفة والمفكرين

***

ونعود الى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها الى الأوربيين ، فنقول انهم عرفوها ـ كما تقدم ـ من مصادر شتى ولم يجعلوها دستورا عاما يحيط بالموجودات ويقرر للانسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الانسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم أغناهم عن القول بمكان له ينسبه الى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على طريقة الأقدمين فى الحاقه بغير الخلائق الآدمية ..

وانما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير الى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من بحوث العلم أو الدين ..

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب التطور » من هذا الكتاب

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والتفرقة بين مراتبها ، ابتداء من النفس التى كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة فى الخلائق النامية ، الى الروح التى تعلو على النفس فى هذا الاعتبار ويمتاز بها الانسان عما دونه ، الى العقل وهو الصفة الالهية التى يتحلى بها الانسان ويقترب بها من أفق الخالق أو المحرك الذى تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها اليه ، وأشرفها حركة الانسان الى المعرفة وشوقه الى الكمال

***

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء فى أبيات تنسب الى الامام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها اليه ، ومنها عن الانسان :

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك وما تفكر
وتزعم انك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

ووافق القول بنجاة الانسان بعقله ما ورد فى آيات القرآن الكريم من الأمر بالتفكير والتـدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الاسلام ثم فرق المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتقدم فى فصل آخر : « ان هذا الشوق ربما ساق الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى الى غاية كماله وهى سعادته التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها .. ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت فى تهذيب خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت الى ما ليس بتمام للجسم الطبيعى لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل الطين وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده ــ كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت الى النظر والتمييز الذى لايكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الأشياء التى تعوقها وتقصر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج الى علاج نفسـانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى الى طب طبيعى جسمانى ، ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين والى المؤدبين والمسددين .. فان وجود تلك الطبائع الفائقة التى تنسـاق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا فى الأزمنة الطوال والمدد البعيدة .

وهذا الأدب الحق الذى يؤدينا الى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية ، حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الأمور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدىء من أسفل على طريق التركيب ... وينبغى أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة ما ، فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهى الى غايات الأمور والى غاية غاياتها ، أعنى السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها »

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها الى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة اللدنية ما يدركه الانسان بالالهام والاستشراق ويهتدى اليه برياضة النفس وقمع الجسد ، وهى معرفة غير معرفة التعلم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبى الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا : « ان ما يرى على ضوء المصباح وصل اليه هذا الأعمى بعكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الانسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرس والبرهان

***

وفى غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الاسلام الامام الغزالى فى حكمة الموجودات وحكمة خلق الانسان بين خلائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم ..

الانسان فى علم الحيوان
وفى علوم الاجناس البشرية

الانسان من الفقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات ..

وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthropoids وتشمل الانسان والقردة العليا ، وهى الغوريلا ، والأورانج ، والشمبانزى ، والجيبون

ويختص الانسان من بين البشريات باسم يميزه وهو اسم الانس Hominidae كما يختص القردة على عمومها باسم النسانيس Simidae فيفرقها هذان الاسمان حيث يجمعها اسم البشريات

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الانس يطلق على الكائن الذى وجدت بقية من جمجمته فى حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دبوا Dubcis الذى وجد تلك البقية اسم Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشريات ، ولكن الرأى الغالب اليوم أن النوع الانسانى بمزاياه التى بقيت له الى اليوم مخالف فى الخصائص الانسية لصاحب تلك الجمجمة ، وان هناك اختلافا غير قليل بين أناسى الحفائر من قبيلة وبين الانسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Hom. Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى بشر — و « سابيين » بمعنى ذى فهم أو ذى ادراك أو ذى كياسة

***

وننقل هنا خصائص النوع الانسانى فى علم الحيوان ، كما أثبتها أقدم الكتب العلمية التى بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعنيت بايراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الانسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن

التاسع عشر ، ونعنى به كتاب « تنوير الأذهان فى علم حيـاة الحيوان والانسان » لمؤلفه الدكتور بشارة زلزل ــ وقد صدر الاذن بطبعه من نظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سـنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الاسكندرية

قال المؤلف فى الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول : « فاذا نظر الى الانسان على سبيل المقابلة بتلك القرود التى هى لاشك أقرب الحيوانات اليه ، يرى أن الانسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شىء من ذلك . وعلة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى الى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا ان الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين . وعلى الجملة فان موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال[1] والسناسن (النتوءات الشوكية) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الانسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الانسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية الا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس الى الأمام . ولذلك كانت هذه الأربطة فى الانسان ضعيفة . قال الأستاذ بروقا Proceau وتابعه كثيرون ، إن السبب فى انتصاب قامة الانسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها الى الأفق . وطفل الانسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى الا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى تعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره . وفى السنة الثانية غالبا

---

(١) القذال : ما بين نقرة القفا الى الاذن .

يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك اذ يبتدىء الطفل أن يدرج

« وبالجملة فان الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الانسان ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية انما هو نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ فى الأوربيين يكون متوسطه فى الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفى النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما .. وما نقص عن ذلك يدل على البلاهة لعلة أو آفة

« والقرود الشبيهة بالانسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراما ، وغاية ما بلغه فى الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ .. وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الانسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فاذا نظرت الى جمجمة انسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهى بخلاف ما اذا نظرت الى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . واذا نظرت الى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا الى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية . وفضلا عن ذلك فان الجزء الوجهى للعظم الوجنى قليل النتوء فى الانسان بخلاف ما هو عليه فى القرود ، واذا نظرت الى الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخرى فى جمجمة الانسان وتراه كله أو قسما منه فى جمجمة القرود . وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية فى القرود غير موجودة فى الانسان ، وهى لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التى يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التى يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق ، ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لايتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمى فى ابان نموه أن يهيىء لها مندغما ، فتنشأ عرفا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد فى

القرود الصغيرة . ومثـل ذلك يقال عن النتوءات الشوكية البارزة فى عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتوءات أصغر فى الأوران مما هى فى سائر القرود لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الخطم الثقيـل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء . أما الجيبـون فخطمه صـغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرود الى الانسـان ولكن طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الانسان ، لأنه يتوكأ عليهما فى مشيه كما يتوكأ الانسان على هراوته .. (١)

***

« ومن الخصائص الفارقة بين الانسان والقرود ابهام الرجل ، فهو فى القرود أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك فى الانسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشى وانتصـاب القامة كما أنه يناسب فى القرد حالة التسلق والامساك

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها .. فأسنان الانسان بالنسبة الى جسده أصغر مما هى فى القرود ، واذا تأملت فى الصـورة راعتك من منظر الغول أنيابه . أما النواجذ والطواحن فى هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة الى طول القسم الوجهى من الجمجمة .. وما عدا ذلك فان وضع الأسنان فى سنخ الانسان على نسق منتظم خلافا لما يرى فى القرود حيث يتخلل نابى الفك العلوى وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ... والخصائص المميزة للانسان تزداد وضـوحا بتقـدم المدنيـة والعمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدى الى تنويعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى فى أقواس العمود الفقرى ، فانها فى المتمـدنين أكثر وضوحا مما هى فى المتوحشين »

وترجع علوم الانسـان الى علم الحيـوان لدراسـة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع اليه أحيانا فى دراسة تقدمهم الثقافى منـذ وجد الانسان بخصائصه المعروفة للحيوان النـاطق Homo Sapiens وقبـل

---

(١) هراوته : الهراوة : العصا الضخمة .

وجود هذا الانسان فى العصور السحيقة التى استخدمت فيها الآلات على شىء من الخشونة البدائية . ويشيع — من أجل هذا — أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التى تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث .. قد كان لها أثرها البين فى مذهب التطور وفى سائر العلوم الانسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الانسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات

***

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الانسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسينى » Miocene قبل نحو مليونى سنة ، وانهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الانسان بعد ابتداء العصر الجليدى منذ نحو مليون سنة ، ولكن الانسان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لايعرف له تاريخ جلى قبل مدة تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة . وكانت بداية انتشار الجماعات الانسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجرى الأول ، ثم تلاه العصر الحجرى الحديث الذى تميّز فيه الانسان بأكبر مزاياه ، وهى الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد[1] على مراحل متتابعة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان الى مكان حيث يوجد الكلأ والماء

وفى هذه المراحل ملك الانسان زمام الخليقة ، وبلغ المنزلة التى استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج اليها ، ويعتقد بعض علماء

---

(١) الاوابد : جمع آبد وهو الوحش .

انسلالات البشرية ان الانسان تقدم شـأوه[1] الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شـأوه الثانى ـ والأهم ـ فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته فى شأوه الأول وملكاته فى شأوه الثانى بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتـداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لاتختلف فى الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث ..

***

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمنـاخ والقدرة العقليـة على الاحتفاظ بالمسكن أو على الهجرة منه الى غيره ، ويعزى الى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة .. وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفـة ، أوضحها أسـماء ألوان البشرة ، وهى البيضـاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلمـاء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة الى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تئول الى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية

وأبرز الفوارق بين السـلالات ـ غير لون البشرة ـ شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السـلالات التى انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره .. فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصـل واحد ، لما بينهم من التشابه فى استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب الى السواد . وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والاقليم ، فنسب الأنف الافطس والجلد الأسود الى فعل

---

(١) شأوه : الشأو : الامد والغاية .

الحرارة ، كما نسب الأنف الأقنى الطويل والجلد الأبيض الى برد الاقليم واحتياج سكانه الى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلطف وقع الأشعة على البشرة . وبمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس ، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة — أو مجموعة من العلل — ترجع الى المناخ وأحوال المعيشة (١)

الا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلا بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى الى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد

واللغات — فى تصنيف بعض علمائها — قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها الى أصول متباعدة فى أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين الكلمات وقواعد النحو فى مفرداتها وتراكيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر فى تراكيبها وتعبيراتها

وتنقسم اللغات من حيث التكوين الى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بادخال المقاطع الصغيرة عليها أو الحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق .. فلغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بادخال المقاطع الصغيرة عليها أو الحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنغيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تدخل على الكلمات أو تضاف اليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف

---

(١) الانف الاقنى : ما كان أحدب الوسط .

من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغــات التى تتكون هــذا التــكوين آن تسمى بالمجمعة Polysynthetic مع وصفها بالغروية الى جانب التجميع

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجرى قواعد العرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيهـا اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ..

***

ويشيع النحت فى اللغــات الهنــدية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبائل الأمريكية الأصيلة الاشتقاق ، فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق واطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة ..

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هده اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرها . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أســبق من الكلمات الإرادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الانسان عفوا من الأصــوات والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصــوتية Omomatopaeic كاسم البلبــل ، والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصــده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة واطلاق القاعدة الواحدة على المتشــابهات لفظا أو لفظا ومعنى ..

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم فى الثقافة تلك اللغــات التى انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبــارات Syntax وينصرف الى الظواهر الصوتية

والصرفية والعبارية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات اجمالا وفى المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهى جميعها من المزايا التى لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا اذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

***

ففى صدد الكلام على التطور الانسانى ، وعلى تطور الانسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير الى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الانسانية الكبرى ، وهى خاصة النطق والتعبير

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لاشك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجزاف فى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وامكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات

وفى قدم الانسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويبتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفيه

ورأى بيرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية فى العالم المعمور تنتمى الى أصل واحد وهو أصل الثقافة بوادى النيل ، ومنه انحدرت الى القبائل القريبة ثم الى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك فى أصوله ،

وانه يشمل الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ووادى النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين

والرأى الذى يأخذ بالمفهوم المنطقى ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الانسان الناطق حيثما وجد فى بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافيه أو عنصرية تدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأى من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وان جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ ..

***

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الانسان الناطق ، وعلى ثقافاته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمس جميعا وبين قبلة فى الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال فى حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة

ان الأشواط الغابرة قد انقضت — كما تقدم — على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الانسان والانسان للغلبة على سيادة العالم المعمور

ولا تزال المرحلتان ماضيتين فى عملهما السياسى والاجتماعى ، وفى عملهما الفكرى والأخلاقى ، فان تسخير الذرة انما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته الى غايته حتى أواسط القرن العشرين . وأن الصواريخ الموجهة بين القارات انما هى امتداد السلاح الحجرى قبل ألوف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد — من علماء الدراسات البشرية وغيرهم — هل من جديد ؟ ..

فان يكن شك فى الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم انما هو هذا

التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل الى الأعمال فى مصالح الأمم والجماعات ، وهـذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيهـا جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيـد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

***

بقى الصراع بين الأمم ، وتغير منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتغليب احداهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو «ايديولوجية» على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذى يطالع الانسانية باحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تئول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية الى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم الى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى الى جاهليتها المتروكة منذ دهور ..

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر الى الواقع المعلوم والغيب المجهول

الإنسان فى علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعى التى عبر عنهـا أرسطو بقوله : « ان الانسان مدنى بالطبـع » وجعلته نموذجا وحيدا فى الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصـفته بأنه حيوان اجتماعى ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الانسان ..

واسم « الانسان » وحده باللغة العربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا الألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما فى الكلمة من الجناس اللفظى فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فانما
سميت انسـانا لأنك ناسى

وقال غيره :

وما سمى الانسان الا لنسيه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديما وحديثا تبين لنـا عن أصل هـذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذى يألف الانسان فى مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش

ويسرى هذا المعنى الى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية فى الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطىء المأهول ، ويطلقون اسم الخـلاء على ما وراء ذلك من رمال الصخراء التى لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الانسان ولا الحيوان فى عشرة طويلة

ان الحضارة الأوربية ـ منذ عهد الفلسفة الاغريقية ـ لم تهتد الى مذهب محيط « بالانسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه الى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه .. ان صفة الانسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هـذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الانس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح

وتكاد كل حضـارة كبيرة أن تمتاز بطابعهـا فى تعريف الانسـان الأخلاقى ، أو الانسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات

فالانسان فى الحضارة الانسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العملى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistic وتسمى هـذه القوانين بآداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت الى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهرب من الحياة

وباطن الانسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمون فلسفته بالسانيسا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشـهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحـاجات وكبـائرها على السـواء ، ويوشـك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وان كانت نهاية المذهب الى « اليوجا » التى تجعل الجسـد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية ..

وحضارة الصين تميز الانسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمى الذى يعنى

أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق واحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن المعرفة فى مذاهب الصين وهى «الزن» Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين وانما هى حالة كحالة الرشد الذى يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعانى والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا فى الذهن بغير معانى أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « ان من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الانسان » فى مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته فى جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففى وسع العالم الدينى أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمنافشتها ، أو يناقض اعتقاده الدينى بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفى وسع العالم المادى أن يفسر صفات الانسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتمس لهـا مرجعا وراء المـادة والطبيعة محالا الى عالم الغيب أو ملموسا مدركا فى عالم الشهادة ..

ففى وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الانسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها

وفى وسعه أن يعلل الأخلاق الانسانية جميعا بغريزة حفظ النوع على سعتها ، أو بالغريزة الجنسية فى نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين

وفى وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستحياء الطبيعة وتصوير الانسان كل ما يحسه فى خلده يصور الأحلام ومخلوقات الخيال

وانما يبرز خلاف الرأى بين الدينيين والماديين حين يبحثون فى الملكات الفكرية التى تناط بها الأخلاق فى كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هى منوطة فيه

بوظائف الحياة الجسدية التى لا فرق بينه وبين الحيوان فيهـا غير فرق الدرجة و « الكيفية » ؟

مثال رأى المـاديين يقول به ريدلى Ridely صاحب كتاب الانسان فى حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه الى آراء جماعة من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة سطور فيقول : « ان الانسان ــ وان كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حى سواه ــ لايزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الاغريق الأقدمون داعيا الى فصل الانسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرسطو فى نطاق برنامجه الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس (١٧٠٧ ــ ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعد فيه نوع الانسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف.. وبوفون الفرنسى معاصر لينوس ، وضع الانسان فى المملكه الحيوانية واجترأ على أن يحتمل نسبته مع القرد الى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف السلطة الدينية الفرنسية فخيروه بين النبذ وبين تعديل رأيه ، وهو تخيير لم يتعرض له لينوس فى البلاد السويدية . وقد وضع الانسان وضعه المحكم فى تعريف « الزولوجيين » فجعلوه بين أعلى الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذلك طبقة الأرائل التى تشمل القردة والنسانيس . وهم يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى اليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الانسان الحديث وحده هو الذى يصـدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف

***

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين يرون أن الارتفاع بالانسـان

الى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائل Primates وبين هذه الأوائل وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة ــ مع هــذا الفارق فى الدرجة ــ الى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علمــاء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ، ولكنهم يقولون ان الفارق لا يفهم الا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء انما ينتهى الى التدرج بينها فى الاســتعداد للعقل والوجدان ، وان أرفع درجة يرتقى اليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون اعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان

وأشهر القائلين بهذا الرأى الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Teilhard de Chardin البيولوجى المتخصص لدراســة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا فى كشف انسان بكين وألقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقــاهرة ، وكتابه « ظاهرة الانسان» The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواســط القرن العشرين بعض معالم الطريق فى اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقب عليها سائلا : « اذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة الى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للانسان أن يتمثل هــذا الاقتراب فى ابتداء ظاهرة الأهبة السيكولوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء . ومن ثم يلقى الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة اذا لاحظنا قلة الفارق التشريحى بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه العقلى فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد تتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغى أن ينتظر؟»

ويجلو هذا الرأى بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ

روسل هاريسون الذى يقول فى كتابه عن مصير الانسان : « اننا لانعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنقص أو تزيد .. لاحظوا أن الفأرة التى يقل المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه الى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هذا الرأى كخطأ القائل أن نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار .. »

ويتبدل منحى الاستدلال المنطقى والعلمى ، اذن ، بهدا التفسير لمذهب النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته وما دونها وما فوقها فى الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول الى الجهاز الحيوانى الصالح للنهوض بمطالب الروح والوجدان . وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو المسئول أن يقول للمعترضين عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعى على درجات تناسب الترقى فى تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام فى الأداة وفى النتيجة ان لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من أقنعته هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت مذهبه فى اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها فى اصطلاحهم المتفق عليه Religion without Revelation فقال علم أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى فى تقديمه لكتاب ظاهرة الانسان : « اننا معشر بنى آدم نحتوى فى أنفسنا كل ما فى الأرض من الامكانات الهائلة ، وفى مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازدياد من العلم والمحبة » ..

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة ، معنوية ، من كلمات الختام التى

انتهى اليهـا السير جوليـان هكسلى فى كتابه « قنـانى جديدة لخمرة جديدة » اذ يقول :

« ان صـورة الانسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى ـ من وجهة المبدأ على الأقل ـ ان الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى الى مخارج من العطف والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليقة أن تكبت وتترك نسيا منسيا .. فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم فى تقدم الدين ، وقد قرر جدى فى مقاله عن اللا أدريه كلاما فى هـذا الصدد كأنه غنى بذاته عن البرهان فقـال : « ان كل انسان ينبغى أن يعطى سببا للايمان الذى يؤمن به .. وان عقيدتى لهى الايمان بالامكانات الانسانية وأرجو أن أكون قد وفقت الى شرح أسبابها»

***

على أننا نجتزىء بأحدث الأقوال التى انتهى اليها غلاة الماديين بيانا لمزية العقل فى الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الانسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الانسان خاصـة أشـد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء الى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب الى التركز ، وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » ..

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وان الوعى الانسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة ..

جاء فى كتاب مسالك العلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦ :

« من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد .. وهى سريعة الفعل تقتـل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الأكسجين ولا تتنفس ، واذا حقنت به عروق قطة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصـاعقة .. وقد حقنت به اثنتا عشرة قطة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن (١) .. »

الا أن سلطان الوعى على الانسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الانسان نشأت اضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا .. ففى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل الى المخ فتبعث التنبيه الى حواس النظر والسمع وسائر الحواس الحيوانية ، وهذه أيضا هى المنبهات التى تصل الينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العـالم الطبيعى أو العـالم الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عدا المؤثرات التى ينفرد بها الانسان وتؤدى له وظيفة التنبه لذلك التنبيه »

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هـذه المزية ، فهى تكاد أن تقرر للروح سلطانا على الجسـد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر ــ ان لم نقل التأثير المطلق ــ فى كيان الانسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل والوجدان

---

(١) Pathes of Science by L. Friedland

مستقبل الإنسان .. في علوم الأحياء ..

ان العلم الطبيعى حذر فى تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه اذا وصل الى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانه واخفاءه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل داروين عند اعلانه لنظريته فى تحول الأنواع

واذا وازنا بين حذر العلم فى الحكم على الماضى وحذره فى الحكم على المستقبل المحدود ، فهو فى الحكم على المستقبل أحذر وأقرب الى التردد بل الى التوقف عن مجرد الظن الا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضى وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا .. فان علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الانسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله الى النقيض

وعذرهم من هذا التهيب مفهوم ، وهو أدل شيء على أن دلائل التطور الماضى لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين ..

عذرهم أن العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضى ليس الا ، ولكنه ينشيء الطريق ويمشى فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير الى المستقبل ، ولايتساوى من يفتح طريقا ومن لايزيد عمله على رسم طريق

ان كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الانسانى كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجى » الكبير

الأستـاذ « مداوار » Madawar صـاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعى (سنة ١٩٦٠) وصاحب البحوث العالية فى تهيئة جسم الانسان لقبول الأجسام الغريبة التى تنفر منها خلاياه على الرغم من تقسيم الآدميين الى فصائل وعائلات فى تكوين الدم وأنسجة الخـلايا ، فانه قد تبين له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الانسانى وحدة لا تتكرر فى مكونات بدنه ، وان كل حكم على بنيته من طريق التقسيم الى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند اجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والأعضاء من بنية الى بنية ..

وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلقى محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقـال انه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلقى هـذه المحاضرات بعنوان مستقبل الانسان لولا أنه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى فى مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع فى موضوعه زملاءه الثقات فى مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى تمهيده للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لإخراج النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « ان الأمر يدعو الى التساؤل : هل يتأتى للانسـان أن يمضى متطورا غدا كما تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو الى الظن بأن هـذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ ..

وطفق الأستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال ــ مثلا ــ ان الاحصاءات فى بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وان بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عادتها فى كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به ان هذه الزيادة أيضا قد شوهدت

فى أمم لم تفقد أبناءها فى الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال انها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة .. ولكنها تيسرت الآن لانتظام الاحصاء فى شتى مظاهر الحياة ، ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الخصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للإحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الانسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال ان العبارة « متحف من النقائض » فاننا اذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ الى اليوم بأناس كانوا ــ لولا ذلك ــ قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات .. كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الامراض ، فلا يكون مآل ذلك الا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذاك

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغييرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغييرات التى تقع فعلا ، وان اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى ... ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتمالات التغييرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات .. وهى عملية يمكن أن تتم اذا كانت

كلتا الصبغيتين مماثلة للأخرى تماثلا يميل بها الى الامتزاج ، ثم اعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة . وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخليق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى Mutation/وما يترتب على امكان احداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى . والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصة عجيبة وهى خاصة الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكمون ضرب من المناعة يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل. وقد يدهش السامع ــ بعد كل ما عرف عن الوراثة ــ أن يعلم انه لم توجد بعد فكرة وافية عن الأمور التى تفعل والأمور التى تجتنب لتحسين نتاج الحيوان بالانتخاب الصناعى ..

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجى فى أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغييرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وان الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الانسان من معرفة وسائل التحسين فى الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط ــ بعد ــ على يقين من نتائجها

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التى قد تنتقل بالوراثة من الدماغ ..

قال الأستاذ مداوار فى محاضرته الأخيرة : « اننى فى هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث فى الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة ــ غير الوسيلة الجينية ــ للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

« وان وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة .. فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى الى أناس سراع الى التصديق بأن بالكائنات البشرية ذات أدمغة ، وان الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وان

الانسان قادر على أن يؤثر فى الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وان كثيرا مما قرأت فى أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لايفيدنا بشىء يزيد على ما ذكرت لكم . وانى لأحس أن البيولوجى مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التى تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن .. ولا بد أن تأتى هذه المحاولة مستندة الى التفكير « الصلب » لا الى التفكير « الناعم » .. وأعنى بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بينة ، مقابلا للتفكير الذى يجد متنفسه فى الكلمات الموتقة والعبارات المفخمة الشعرية

« وأرانى أقارب الوضوح البين اذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا الى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون »

« فالصندوق العازف جهاز يحتوى قالبا أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك الزر بالباعث أو المحرض ... وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى الى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأثر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . واننى أبعث الصندوق بلمس الزر — أى زر — الى احداث نغمة موسيقية ، ولكننى اذا اخترت زرا معينا فالباعث هنا يدعوه الى احداث نغمة معينة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به ، وكل ذلك راجع الى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية

« ... والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون أو أية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية :

« ان لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول اليه من البيئة المحيطة ... فذلك باعث كباعث الصندوق العازف الى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف الى

الباعث هناك شيئا أكثر من ذلك .. وهو الخطوط المرسومة التى تمر بها الابرة فتبعث منها الأنغـام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصـدر للتوجيهـات الموسـيقية وانما هو القالب الذى جاء الى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقتى به ــ اذن ــ علاقة تعليمية ، لأننى ــ بمعنى من المعانى ــ قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع

« ... ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعددنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك .. فلنذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات ..

« ... منـذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون الى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وان كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس الا .. أى ان تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس ــ كما كان مظنونا ــ نتيجة شىء من الخارج .. فليست الآثار المستقرة فى الجهاز الحى خطوطا مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخلايا

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذى يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور، فكيف نصنف البواعث التى تفعل فعل التطور فى الأجهزة الحية ؟.. ان النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصفات المكتسبة هى على أعمها تنظر الى البواعث التعليمية ، تعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على اعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وان هذه التأثيرات اذا سرت فى البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة الى أعقابها .. فالحداد الذى طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة فى ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة فى الخلايا التى تنشىء بذوره المنوية وتنتقل من ثم الى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية

الأذرعة القوية .. ولست أفيض فى مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية .. وحسبى أن أجملها فأقول انها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا اذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فانها فى هذه الحالة قد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا الى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخمائر من طعامها ، ولكنها تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطؤها وتبين ان هـذه العملية وسيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليمية . فليس فى وسع البكتريا أن تنشىء خميرة غير التى هى مفطورة على انشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام انه نبه الاستعداد الذى لم يكن له منبه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن فى التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ..

« ويصدق هذا على تطور الحيوان .. فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصـار القول بالتعليم ، اذ كان الأولون يرون أن كل تطور فانما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم ـ وطالما تعرضوا للسخرية ـ يرون أن بذرة النسل انما هى انسان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التى تعمل فى تكوين الجنـين انما هى بواعث تعرض له مما حوله . ولعل الحقيقة وسط بين هـذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيفاءها رهين بالعوامل الخارجية عنها ..

« والى نحو سـنتين كنا نشعر أن ضربا من النمو يتم فى أجهـزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجها أو معلما ، على النحو الذى نشاهده عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، تؤدى الى انشاء البنية لمادة بروتينية خاصة .. أغلب مايكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره فى الوقاية من عدوى الأمراض ..

ومع البوادر التى توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون فى ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية فى جوهرها .. ونعود الى الصندوق العازف مرة أخرى ..

« وبعد .. فأى ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ .. ربما قال لنا زائر قدم الى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم .. انه لظفر عظيم ، واننى لألمح سره وأفهم ان هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعى ، لولا أنها صعبة جدا ، وانها لبست مما يستطاع ..

الا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وان هنالك جهازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ

« واننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها واشتباك وظائفها .. فان تطور الدماغ قد كان آية رائعة فى هذا الوجود ، وهو — ولا ريب — أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ..

« على أننى أظن أن الدماغ انما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وان السلوك الغريزى انما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فاذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم

« ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل الى جيل كما تسرى الخطابات المتسلسلة التى تبدأ بكتابة خطاب الى أحد الناس ، وتسأله أن يبعث به الى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك الى آخر وآخر الى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيدة وابن حفيده وهكذا ، وهكذا ، على مدى الأجيال ..

« ... ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار فى تطور الدماغ : أولها الجهاز العصبى وقد نشأ لتنبيه البنية .. ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطُرق الجينية يأتى من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شىء أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه الى آخرين . وانه لعامل خاص بالنوع الانسانى لعله قام بعمله الهام منذ خمسمائة ألف سنة .. أما الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ، ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعنى به دور التطور الذى يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتى سنة ..

***

ونسأل بعد هذا ما الذى نستفيده مما تقدم ؟.. فنقول ان الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات .. فالمشابهة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لايجعلهما عملية واحدة فى مجرى الحوادث ولا فى عواقبها.. فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق الناسلات والصبغيات ــ أو ما نسميه بالطريق الجينية ــ غير مستطاعة .. وفائدة التمييز بين التطور الفردى وتطور الجماعة أن نبعد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية التى تعمل فى الحالتين على سنة التغييرات الجينية ، أو الفكرة التى تقول لنا ان الجماعة لابد آن تولد وآن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرة التى توحى الينا ترك الجهد فى تحسين الجماعة اعتمادا على آن الطبيعة أخبر وأدرى

« ونحن اذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هذه مرهونة بمقدار ما نملك من وسائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومثابرتنا على زيادة محصولنا من العلم بما يجرى فيها .. ولست أقول ان الانسان مدفوع بغريزة تحفزه الى الكشف والاستطلاع وانه مسخر أبدا فى طلب الحقيقة ، فان الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبا للتطلع أو التجسس ، ولكن هذه الغريزة وان بلغت غايتها من الاحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغى أن نكون مدفوعين دفعا الى الاستطلاع ،

وان أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال .. وما علينا الا أن نذكر عاقبة الدعوى التى زعم أصحابها أن الانسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال .. ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوان الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها فى هذه الخصلة هو أن الأجراس التى تدق لنا دقات التنبيه انما هى كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا »

***

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجى اقتباسا تحرينا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هذا المعنى أن مستقبل الانسان الطبيعى مستكن فى كيانه وانه يملك وسائل التهذيب الاجتماعى ولكنه لا يقدر على احداث أثر لم تكن مولداته مطوية فى استعداده ، وان الأجراس التى تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هى نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذى يحتال به على الخطر بعد الانتباه اليه انما هو من عقار أرضه ووصفات طبه

دواؤك فيك وما تشعر ودأؤك منك وما تفكر

***

وقبل الأستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السؤال عن مستقبل الانسان عالم بيولوجى من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار فى منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الانسانى Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا الى عناية الهية تتلخص حكمتها الهادية فى أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالارادة على حسب جهودها ، مع الهداية التى تلهمها ولكنها لا تلهمها إلا لكى تعينها بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها

ومؤلف كتاب القدر الانسانى هو العالم البيولوجى الجليل ليكونت دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه مجارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل الى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمل معها آلوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وانها فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين ــ دى فرى Nudin De-Vries ــ كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما الا اذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وانها غاية بعيدة مقدورة »

ثم ختم بحوثه قائلا : « ان بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الانسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه فى المعاملة آن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه ــ اذا صح ــ كان خليقا آن يصبح سببا للاتجاه بجهوده الى تلك الغاية : « وان الانسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وآن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الانسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يظل فى أعماق البحر ولا يدرى أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى ، لأن الانسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده .. وعلى كل انسان أن يذكر آن القانون قد كان، وسيبقى كما كان.. وأن يناضل، وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول

من الميدان المادى الى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الالهية كامنة فى تلك القرارة ، فى قرارته دون غيره ، وانه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها ، قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غبرته على العمل مع الله والعمل فى سبيل الله »

ولقد آل تطور الانسان عند غير البيولوجيين الى تطور الانسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التى بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الانسان سيد الخليقة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدى المجاميع البشرية فعل الأداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الانسان الأول ، اذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الأداة

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأى تعبيرا أدنى الى الفهم من تعبير الأستاذ رسل هاريسون فى كتابه : « ماذا يكون الانسان » ... فانه ترك لغة « بابل » الحديثة : لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغى أن يوضع ان كان له موضع على الاطلاق ، وذلك هو موضعه من « الشخصية الانسانية » ...

فلا مستقبل للانسان ان لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه الشخصية ان لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل

ان الشخصية الانسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الانسان فى الذهن أن تتم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس فى الواقع ما يمنع « الشخصية الانسانية » أن تتحقق كما تحققت فى الذهن ، فكرة قابلة للتمام ..

عود على بدء ...

بعد هذا الشوط فى عرض المذاهب والآراء عن الانسان نسأل على ثقة من الجواب :

ـ هل صحيح أن القرآن يلقى بالانسان غريبا منقطعا فى القرن العشرين ؟ ..

والجواب الذى لا تردد فيه ، ان القرآن ـ على النقيض من ذلك ـ يضع الانسان فى موضعه الذى يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنا » أصح وأصلح من الانسان الذى يؤمن بالأسرة الانسانية ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية .. وهو فضل الاحسان فى العمل واجتناب الاساءة ، وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور « بالمسئولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام الى العقل فى كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير الى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولابد فى كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول ..

ان القرآن يعطى القرن العشرين انسانه الذى ليس من انسان أصح منه وأصلح لزمانه ، فاذا آمن هذا الانسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الانسانية من الايمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تختتم النبوات ـ بعد الايمان بهذا الاله الواحد ـ لتسلمه الى عقله وضميره ، وتسأله عن اصلاح نفسه واصلاح دنياه بما يدعوه اليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة

واذا كان هذا هو انسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالناقد المنصف الى حظ كبير من الترفع لينظر من عل الى أولئك المتعالين المتوقرين

أولئك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأى وقال لهم مقطع الرأى هذا أن القرآن نسخة مكررة — بل مشوهة — من هذه الديانة أو تلك الديانة ، وانه لم يحدث بعدها جديدا فى عالم الروح وعالم العقيدة ، وهو الذى هدى العالم فى أمر الاله وفى أمر النبوة وفى أمر الانسان الى هذا الفتح المبين .. وما من بقية تبقى فى لباب العقيدة بعد هذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الالهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الانسان الذى تخاطبه الأديان ..

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا اليه فيما تقدم . وقد نرى — أهم من ذلك — ان آيات القرآن تفسح للعقل الانسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا نصده عن طريق قط يترقب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، الا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو الى الله : وهو طريق الالحاد

ففيما تقدم من شروح حكماء الاسلام ما هو أعجب من فروض النشوئيين بعد القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية الى القرد الى الانسان ، وللنشوئيين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها — لو شاءوا — من آيات قرآنية فسرها بعضنا تفسيرا يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

(وَلَوْلاَ دفعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْض) .
« سورة البقرة »

***

(فأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فيمكثُ فِى الأَرْضِ)
« سورة الرعد »

---

(١) الزبد : ما يعلو على وجه الماء من قذر ونحوه . (٢) جفاء : باطل مرمي به .

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) (١) « سورة نوح »

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب « النظريات » والفروض فى كل عصر يظهرون فيه ؟ .. نقول : « كلا ولا ريب » لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح اذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها الى نهاية شوطه مسئولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملى للعقل فى عمله ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الايمان والتفكير ..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ..

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى — فيما تبين بعد ذلك — احدى حقائق العيان

ومذهب التطور — خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع — لم يثبت بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع الى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس فى القرآن مايوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى ، لأن خلق الانسان من الطين لا ينفى التحول الى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة

---

(١) أطوارا : جمع طور وهو الحال .

من صور التركيب ، وانما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الانسان من طين ..

(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) « سورة السجدة »

وفى آية أخرى : (مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذى يثبت — اذا ثبت — على وجه من الوجوه

ومذهب النشوء — مع سائر العلوم الحديثة — يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد ، هل يتطور الانسان فى المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع الى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به يملى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ الى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلتفت اليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدى الى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ أن الغد كله مرهون بميراث العقل والمشيئة والايمان ...

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر الى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم — كثر أو قل — لا ينفعهم فى تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وانما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الانسانية » الى خير ما تستطيعه العقول المميزة اذا صدقت النية على حسب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والارشاد ، وجعلت مسألة التقدم و « بقاء الأصلح » مسألة فهم واعتقاد أدنى الى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام

ونخال أن القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء ، ولكنها الهداية التى تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الانسان فكر وأمانة وايمان) و (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)

ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هذه الصفحات عن الانسان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

ان القرن العشرين لم يضع الانسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عنـد أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسـماء انه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالايمان فيما خفى عليه

وموضعه بين بنى آدم وحواء أنهم اخوة من عشيرة واحدة ، أكرمها من كرم بما يعملْ من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما أتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقـديم	٣
انسان القرآن وانسان القر ن العشرين	٧
تمهيـد	٨
الكتاب الاول : الانسان في القرآن	
المخلوق المسؤول	١٤
الكائن المكلف	١٩
روح وجسـد	٢٧
النفـس	٣١
الامانـة	٣٦
التكليف والحرية	٤٣
أسرة واحـدة	٤٩
آدم	٥٦
الكتاب الثاني : الانسان في مذاهب العلم والفكر	
عمر الانسـان	٦٠
الانسان ومذهب التطور	٧٠
التطور قبل مذهب التطور	٨٣
أثر مذهب النشوء في الغرب	٩٢
مذهب التطور في الشرق العربي	٩٩
الدين ومذهب دارون	١٢٥
سلسلة الخلق العظمى	١٣١
الانسان في علم الحيوان وفي علوم الاجناس البشرية	١٤٠
الانسان في علوم النفس والاخلاق	١٥١
مستقبل الانسان في علوم الاحياء	١٥٩
عود على بدء	١٧١